صدر بدعم من

www.trc.gov.om

مذكرات رجل عماني من زنجبار

الكتاب يشتمل على ذكريات المؤلف في زنجبار، وتنجانيقا (تنزانيا حاليا)، وكينيا، وأوغندا، ومدغشقر، ومصر، وليبيا، وسلطنة عمان

سعود بن أحمد البوسعيدي

تحرير: جين جعفر

مراجعة وضبط النص الإنجليزي:
د. باتريشيا جروفز

ترجمه عن الإنجليزية: حسن المطروشي

مراجعة: أ. د. سمير عبدالرحيم هيكل

سعود بن أحمد البوسعيدي

مذكرات رجل عماني من زنجبار

النادي الثقافي

ص.ب. 3954 ر.ب. Ruwi 112
هاتف: 0096824563400
فاكس: 0096824562402
مسقط: سلطنة عمان

مؤسسة الانتشار العربي

ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت – لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978 - 614 - 404 - 542 - 8
الطبعة الأولى 2012

المادة المترجمة والصور الفوتوغرافية المنشورة في هذا الكتاب بموافقة الناشر الأصلي للنسخة الإنجليزية،
مؤسسة الرؤيا للصحافة والنشر – مسقط

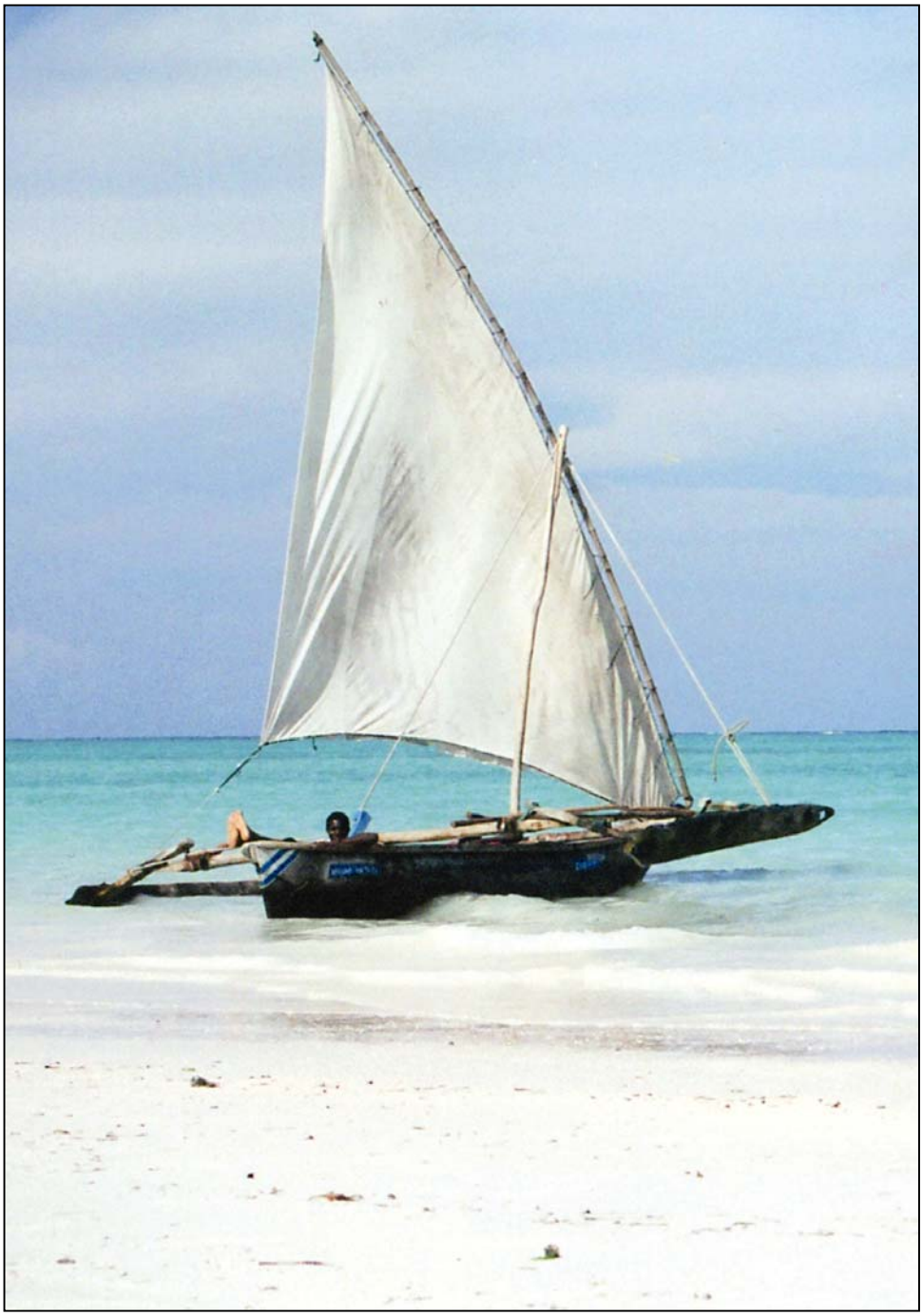

كاتاماران مصنوع يدوياً على شواطئ الخليج الأزرق بزنجبار "د. باتريشيا جروفز"

الفهرس

الإهداء	11
شكر وعرفان	13
كلمة بقلم جين جعفر	17
كلمة تمهيدية	21
تقديم	23
الفصل الأول : بداية النهاية	25
الفصل الثاني : كيف بدأت فصول القصة؟	33
الفصل الثالث : المغامرات الأولى لجدي في زنجبار	43
الفصل الرابع : زنجبار تصبح وطناً	47
الفصل الخامس : قدومي إلى العالم	59
الفصل السادس : النشأة في أوقاتٍ استثنائية	63
الفصل السابع : الملكية في كل مكان	73
الفصل الثامن : أبطالٌ من أسلافنا	95
الفصل التاسع : التدرج في المناصب الحكومية	109
الفصل العاشر : مغامراتٌ في البرية	131
الفصل الحادي عشر : شغف السفر	143
الفصل الثاني عشر : المجهول ـــــ رياحٌ تتشكل في الخفاء	169
الفصل الثالث عشر : الثورة	183
الفصل الرابع عشر : الفرار من زنجبار	193

الفصل الخامس عشر : نعمة البقاء على قيد الحياة 201
الفصل السادس عشر : تحقيق الأحلام الكبيرة 213
الفصل السابع عشر : إضاءاتٌ حول النهضة العمانية 227
الأمور الحسنة بخواتيمها الحسنة 237

الإهـــداء

بكل مشاعر الإخلاص والوفاء أهدي هذا الكتاب إلى حفيدتي الرائعة رؤية بنت سالم اللمكي، متمنياً لها ولجيلها أن ترث عالماً أكثر سلاماً ووئاماً.

شكـر وعـرفان

يطيب لي في البدء أن أرفع أصدق مشاعر الثناء والعرفان للمقام السامي لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم - حفظه الله ورعاه - على كل ما تحقق على يديه من إنجازات لي ولأبناء وطني. لقد قاد جلالته مسيرة النهضة العمانية المباركة، وتمكن من بناء دولةٍ عصريةٍ حديثةٍ خلال فترةٍ وجيزةٍ في غضون أربعة عقودٍ من الزمن. وبفضل الرؤية الثاقبة والاستثنائية لجلالته، وعنايته البالغة التي يوليها لأبناء شعبه، بلغت السلطنة اليوم هذا الشأو الرفيع من الرخاء والتقدم.

كما أود أن عبر عن خالص تقديري لحفيدتي رؤية، التي لعبت دوراً رئيساً لإظهار هذا الكتاب إلى حيز الواقع، من خلال تشجيعي على كتابة مذكراتي، وقيامها بتولي زمام المشروع. كما أعبر عن بالغ امتناني للكاتبة السيدة جين جعفر، الشخصية المحورية الأخرى في هذا المشروع، التي قدمت لي كل العون أثناء إعداد مادة هذا الكتاب، طوال عامين متتاليين. ولولا تفانيها وجهودها الطيبة لما كُتِبَ لهذا المشروع النجاح. لقد قامت جين بإجراء حواراتٍ مطولةٍ معي، وبحثت في الخلفية التاريخية، ودونت القصص التي أسردها، سواء المحكية منها أو المكتوبة، وجمعتها بمهارة عالية في سياق تاريخي موحد، وفقاً لتسلسلها الزمني.

ولا يفوتنـي في هـذا المقـام أيضاً أن أنـوه بالدور الذي قامت به المؤلفة الدكتورة باتريشيا جروفز - زميلة وصديقة للعائلة - نظير جهودها

المخلصة في تحرير مادة الكتاب، وصياغته على نحو يتسم بالتشويق والانسيابية اللتين كنت أطمح إليهما فيه، علاوة على دورها الخلاق وتعاونها أثناء مرحلة طباعة الكتاب.

الشكر موصول أيضاً لابن خالي، بركات بن أمين البوسعيدي، الذي أظهر حماساً كبيراً لإنجاز هذا المشروع، إذ ساهم ببعض الصور القديمة، التي لم يسبق لي رؤيتها، والتي أضافت قيمة هامة للكتاب. لقد تمكن بركات، من خلال بحثه في تاريخ العائلة، من إحياء قصص أجدادنا، الذين كان بعضهم حكاماً لشرق أفريقيا، في ممالك امتدت من مقديشو حتى ماليندي، مروراً بسواحل كينيا.

وإنني أدين بالفضل أيضاً للفاضل سعود المعولي على تفانيه وما بذله من الوقت والجهد في إسداء المعونة لي للحصول على معلومات دقيقة حول بعض الأحداث التاريخية التي جرت في زنجبار. كما أتوجه بالشكر للفاضل عيسى بن ناصر الإسماعيلي على تعاونه ومساهمته ببعض المعلومات الخاصة بتوثيق بعض الأحداث المدونة في مذكراتي.

وفي هذا السياق أيضاً يسعدني أن أعبر عن تقديري وامتناني لجمعية التاريخ العماني على موافقتها على نشر هذا الكتاب، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في نفسي.

أما بالنسبة إلى رعاة الطبعة الإنجليزية من هذا الكتاب، المتمثلين في مجموعة شركات راميش كيمجي، وبنك مسقط، فقد تجاوز دعمهم مفهوم المساهمة المالية الكريمة، إلى إيمانهم العميق بأهمية هذا المشروع. وقد شكل دعمهم وإسهامهم واهتمامهم بمادة الكتاب حافزاً لنا جميعاً. كما أثمن الدور الذي قامت به الفاضلة آن بوجي، مديرة دار الرؤيا للصحافة والنشر، التي بذلت ما يفوق مسؤولياتها لإنجاز مشروع الكتاب. وقد بذلت الرؤيا تعاوناً بناءً وشاركتنا الجهود المخلصة في سبيل إنجاز هذا المشروع.

أخيراً وليس آخراً، أتوجه بالشكر إلى زوجتي الحبيبة، زكية، على صبرها وتفهمها لما كنت أقوم به، أثناء سهري الليالي الطوال، خلال انشغالي بهذا الكتاب، مستعيداً ومدوناً ذكرياتي. فشكراً لك يا زكية على كل شيء.

إنني مدينٌ لكل هؤلاء الناس الرائعين ـ أقاربي وأصدقائي ـ نظير وقوفهم معي لإنجاز كتابٍ حول تجربة حياتي، الذي آمل أن يكون مفيداً لعدد كبير من القراء في السلطنة وزنجبار، وفي بقاع أخرى من هذا العالم الذي يتقارب وتقصر مسافاته يوماً بعد يوم.

سعود بن أحمد البوسعيدي

مسقط

فبراير 2012م

كلمة بقلم جين جعفر

لقد كانت سانحةً طيبةً لي أن أتولى مهمة توثيق مذكرات السيد سعود البوسعيدي. وقد أمضيت كثيراً من الأوقات الممتعة بجانب المؤلف، في مناقشة حكاياته وتدوينها حول مختلف الأشخاص والأمكنة والأحداث التي أسهمت في تشكيل حياته. وعلى الرغم من تقدمه في السن، إلا أن ذاكرته ما زالت قويةً ودقيقةً، والصورة التي يرسمها عن عصره مذهلة.

لقد عاش السيد سعود بن أحمد النصف الأول من حياته في شرق أفريقيا، حيث استقر بعض أجداده في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وأصبحوا رموزاً بارزة في الحياة السياسية للمنطقة. إثر طفولة مطمئنة قضاها في زنجبار، ثابر البوسعيدي في تحصيله الدراسي، ثم التحق بعد ذلك بسلك الخدمة المدنية. وقد كان من بين أوائل من حصلوا على بعثة حكومية أتاحت له فرصة دراسة الإدارة العامة في جامعة أكسفورد. وعند عودته إلى زنجبار تدرج في المناصب الحكومية حتى تم تعيينه مسؤولاً للمقاطعة. ونظراً لكونه قريباً من الحياة الملكية في زنجبار، إلى جانب مصاهرته للسلطان خليفة بن حارب البوسعيدي، الذي قضى أطول فترة في حكم زنجبار من بين سلاطين آل بوسعيد، فقد أتاح ذلك للمؤلف أن يعايش زنجبار في أزهى عصورها. وقد كان أحياناً شخصية رئيسة في حضور تشريفات بعض رؤساء الدول والمراسم السلطانية. أما في أوقات فراغه فقد كان سعود البوسعيدي يمارس رياضة ركوب الخيل والبولو والتجديف والقنص والسفر.

لقد شهد المؤلف أولى اللحظات السوداء لانطلاق شرارة الثورة في زنجبار، وكانت قصة حياته بعد هذا الحادث المأسوي، مثالاً على التفاني والتكيف مع البيئات والظروف المختلفة. وإنني على ثقة بأن ما بين دفتي هذا الكتاب ما يستحق المعرفة، ليس للعمانيين والناس في شرق أفريقيا فحسب، بل للعالم أجمع، نظراً لعالمية حقائقه.

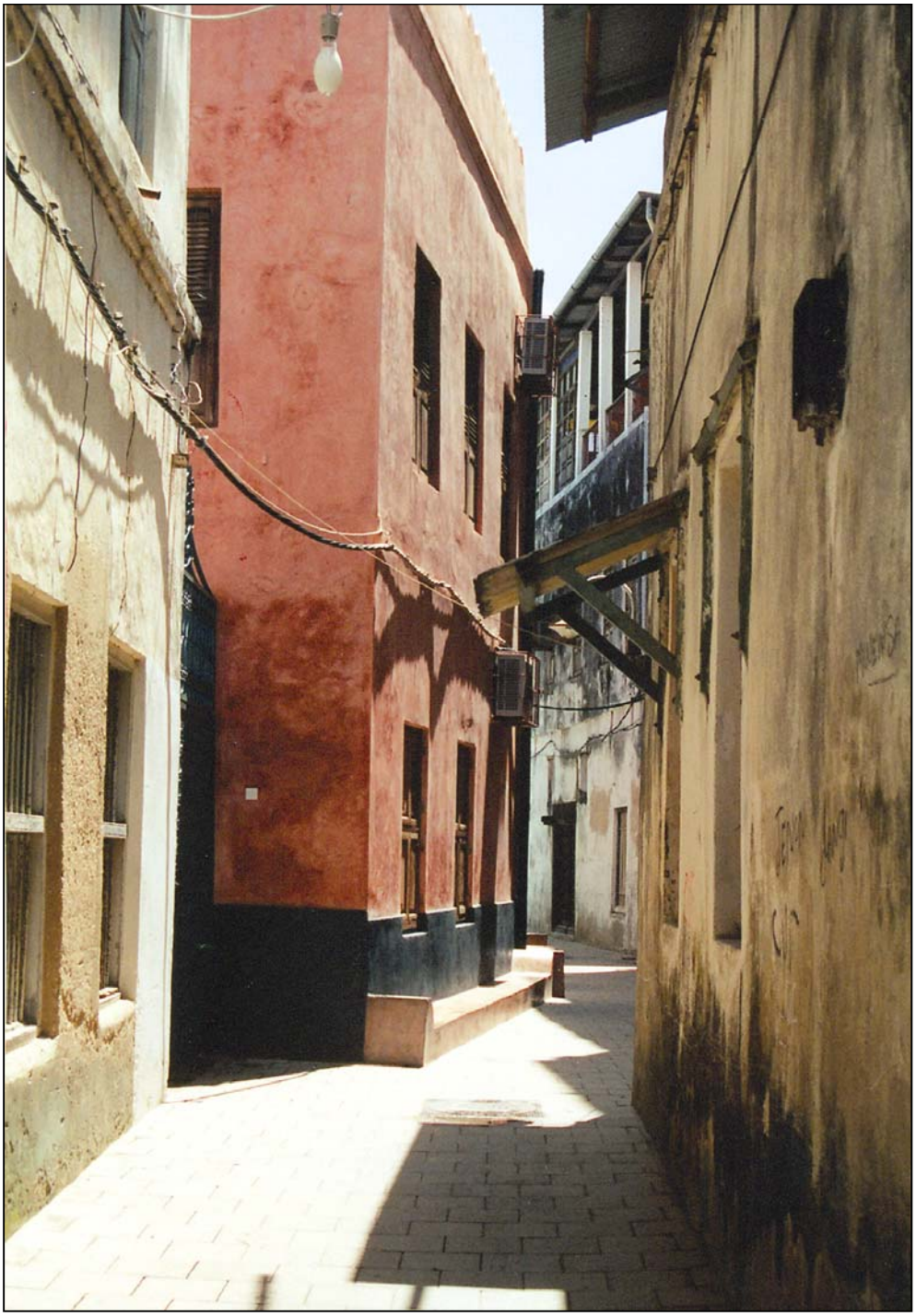

أحد الشوارع الضيقة التقليدية في ستون تاون "د . باتريشيا جروفز"

كلمة تمهيدية

تعد الأسرة في سلطنة عمان، كما في غيرها من البلدان العربية، الركيزة الأساسية في حياتنا التي تدور حولها كافة المناسبات الاجتماعية تقريباً، سواء أكانت حفل عيد ميلاد، أم مناسبة زواجٍ، أم عيداً دينياً، فإن العائلة تكون هي جوهر المناسبة.

وخلال تدرجنا في مراحل النمو ننظر إلى والدينا بإعجابٍ ونعتمد عليهما، ولكننا لا نعرف عنهما سوى القليل كأفراد مستقلين، أو شخصياتٍ منفصلـــة عنـــا. وإنه من الصعب أن نتخيل لهما وجوداً قبل أن يكونا والدينا. إننا نسمع قصصـاً عن حياتهما في سن الصبا وعن حياتهما العملية، واهتماماتهما الخارجية، ولكننا لا نقترب من فهمهما كما نفهم إخواننا أو أبناء أعمامنا وأخوالنا وأصدقاءنا. وفي لحظة ما ندرك هذه الحقيقة، ونشعر بالحاجة إلى معرفة المزيد عن والدينا، الأشخاص الأكثر قرباً منا، وما زلوا غامضين بالنسبة لنا.

ومن هذا المنطلق أقبلت على قراءة مذكرات والدي بشغفٍ ودهشةٍ شديدين. لقد قدرت اهتمامه الكبير بعائلته، وخصوصاً شقيقي وشقيقتي ونفسي كأطفال. وبطبيعة الحال كنت على دراية بذلك، ولكن أن تقرأ شيئاً عن هذا الجانب المشرق والمفعم بالحياة، فإن ذلك يضيف لك سعادةً أخرى من ذكريات الطفولة التي ذاقها كلٌّ منا.

إن حياة والدي التي بدأت قبل قرنٍ من الآن، تنطوي على أحداثٍ فاصلةٍ في تاريخ عمان وزنجبار. وقد كان محظوظاً بقربه من مجموعةٍ من الشخصيات في لحظات التحولات التاريخية، وامتلاكه لقدراتٍ مميزةٍ مكنته من تدوين أشياء ذات أهميةٍ بالغةٍ عن الواقع والتاريخ، حول مختلف المناطق التي عايشها. إنه يسرد أحداثاً شخصيةً ترتكز على ذاكرةٍ خصبةٍ، تتناغم في سردها للحقائق وما هو موثق من الآخرين.

كما كان أبي محظوظاً أيضاً بما أتيح له من تجارب السفر الكثيرة، وخوضه مغامراتٍ مثيرة في الحياة البرية، واحتكاكه بثقافاتٍ مختلفةٍ منذ المراحل المبكرة في حياته. ويعد السرد الحكائي مكوناً متأصلاً في عمق التقاليد الثقافية العمانية الشفهية. وبالتالي، فإن والدي يسرد مغامراته بحذاقة الراوي العماني الحقيقي، الأمر الذي جعلني أشعر وأنا أقرأ مذكراته، كأن هذه القصص تدور حول شخصية إحدى الروايات ــ إنه شخص مألوف، ولكنه بطل.

إنني وعائلتي بأسرها ممتنون لوالدي على هديته الثمينة المتمثلة في مذكراته، وإنني أزعم أن الأجيال القادمة ستشاطرنا ذلك أيضاً. إننا نتشارك هذا الكتاب مع عدد كبير من القراء، نظراً لقيمته التاريخية، ونأمل أن تجدوه ممتعاً ومفيداً وثرياً، تماماً كما وجدناه.

د. راوية بنت سعود البوسعيدي

تقديم

يرجع فضل فكرة تدوين مذكراتي لحفيدتي رؤية بنت سالم اللمكي، التي كانت دائماً مهتمة بمعرفة تاريخ العائلة، وتهوى الاستماع للقصص التي أسردها.

لقد تمثلت فكرة رؤية في اقتراح كتاب واقعي ومشوق، وفقاً للطريقة المعروفة في تقاليد الثقافة العمانية في سرد القصص. وانطلاقا من ذلك ارتأيت بأن أفضل وسيلة لذلك تتمثل ببساطة في سرد قصة حياتي لشخص ما، يمتاز بالقدرة على تدوين كافة التفاصيل، ووضعها جنباً إلى جنب، وفقاً لمسيرة حياتي.

وكانت أعمق التجارب أثراً في حياتي، دون شك، هي حدث الثورة في زنجبار عام 1964م، إذ كنت حينها في الخمسين من العمر، متزوجاً وأباً لثلاثة أطفال، وأنعم بحياة مستقرة، ولديَّ وظيفة جيدة. إن هذه الثورة الوحشية قد مزقت العالم بالنسبة إلنا، كما نعلم جميعاً، وشتتت حياة من بقوا بعدها على قيد الحياة. ولكن الإنسان لديه قدرة هائلة على تجاوز الأمور، وهذا ما يعكسه النصف الثاني من الكتاب الذي يتحدث حول إعادة بناء حياة جديدة ــ مثلما تأتى لأكثر العمانيين الزنجباريين.

يبدأ الكتاب بحادث الثورة، ثم يفتح نافذة إلى الوراء ليطل على عام 1914م، حيث ولدت في شواطئ زنجبار الوادعة. كان العالم الحديث حينئذ قد ولد للتو، وكان على وشك اختبار قدراته التكنولوجية حديثة الاكتشاف في

الحرب العالمية الأولى. وتشبه قصة حياتي في كثير من النواحي التحولات التي حدثت في القرن العشرين. لذا فقد سعيت لدمج ما هو شخصي في السياق الأوسع للتاريخ، دون إقحام مفتعل، بغية الإبقاء على طراوة السرد محوراً رئيساً في صياغة مادة الكتاب.

وفي منتصف الكتاب تقريباً، نعود إلى عام 1964 للحديث عن الثورة الزنجبارية مجدداً، حيث تتواصل أحداث التاريخ عبر عدة محطات مضطربة تمتد لعدة سنوات، إلى حين تولي صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ــ حفظه الله ورعاه ــ مقاليد الحكم في عمان عام 1970م. لقد كانت لحظة حاسمة تبشر بميلاد عصر جديد من التغيير، يسهم في بناء وطن حقيقي لآلاف العمانيين الذين شردتهم الثورة، أو لأولئك الذين كانوا يعيشون في الخارج، نظراً لقساوة الظروف التي كانت سائدة قبل مجيء صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم.

إن أولئك الذين يحبون زنجبار لم يفقدوها إلى الأبد، ويتجلى ذلك في النهاية السعيدة لهذا الكتاب، الذي ينتهي بالحديث عن إجازات يلتئم فيها شمل العائلة مجدداً هناك.

الفصل الأول

بـــدايـــة النهايـــة

ستون تاون - 12 يناير 1964 -

في تلك الليلة قررت الذهاب إلى النادي الاجتماعي. وفي طريقي إليه قابلت رجلاً مسناً، كنت أعلم تعاطفه مع حزب الأفروشيرازي(*) المتمرد. وحين أبلغت الرجل العجوز أنني ذاهب إلى المدينة بدا منفعلاً على نحوٍ يثير الاستغراب. لقد كان يبدو متوتراً وعصبياً ومتردداً، وكانت عيناه تحملقان في كل الاتجاهات. شعرت حينها بأن الرجل كان على وشك إبلاغي بشيءٍ جلل، إلا أنه عدل عن ذلك، وهز كتفيه غير مبالٍ، ومضى مسرعاً في طريقه، متمنياً لي السلامة على نحوٍ تهكُّمي.

لقد كانت تلك الفترة مضطربةً وغير مستقرة. أما في الأوقات الطبيعية فإنني سأكون على درايةٍ بأية اضطرابات تحدث، إلا أنه، وعلى نحوٍ مفاجئ تم نقلي، قبلها بأسبوعين، من مقر عملي في ستون تاون إلى مكوكوتوني، حيث تم تعييني مسؤولاً عن المناطق الريفية، مع مركز قيادتي، في منطقةٍ نائيةٍ، تبعد

(*) تـشكل الحـزب الأفروشـيرازي اليـساري قبل ثورة 1964م، من خلال الاتحاد بين الحزب الفارسي ذي الأغلبية الفارسية، والحزب الأفريقي، ذي الأغلبية الأفريقية.

أربعةً وعشرين ميلاً عن المدينة، وتالياً لم تعد الأمور بالنسبة إلي كسابق عهدها. إذ إنني خلال عملي السابق، مسؤولاً عن المناطق الحضرية لعدة سنوات، تمكنت من تكوين علاقاتٍ جيدةٍ مع عددٍ من أبناء القرية، وكانت الأخبار تصلني أولاً بأول. فضلاً عن ذلك، فقد كانت لدي مصادر استخباراتيةٌ عديدةٌ تحيطني علماً بأي حراكٍ سريٍّ أو اضطرابٍ سياسي.

لقد بات واضحاً بأن ثمة خطراً ما يلوح في الأفق. وقد كنت غير راضٍ عن نقلي المفاجئ من العاصمة زنجبار، حيث كانت الحكومة في تلك الظروف بحاجةٍ ماسةٍ إلى معرفة ما يجري. ولم أكن مقتنعاً بالإجابة التي قدمت لي حول نقلي، وبدأت أشعر بأن قرار النقل لم يكن يخلو من مكيدة. لقد كان ظني في محله، فقد تبين لاحقاً بأن بعض المسؤولين في الحكومة كان ضالعاً في التآمر مع الثوار، وكان نقلي جزءاً من مكيدةٍ مدبرةٍ للتعتيم على الحكومة وعزلها عن ما يجري في الخفاء.

لم يكن هذا الأمر متقبلاً بالنسبة إلي، فقد بدأت أشعر بحالةٍ متنامية من الاضطراب والتوتر في ستون تاون. وكان من الضروري جداً أن نظل على اطلاع دائم بمجريات الأحداث، إذا كنا نود أن نكون مؤثرين في الحيلولة دون وقوع أية اضطراباتٍ أو القضاء عليها، خلال هذه المرحلة التي تشهد تصاعداً في الغليان وحالةٍ من عدم الاستقرار.

حينما وصلت إلى النادي في تلك الليلة، وجدته هادئاً على غير عادة، كما لو كان هناك حظر تجول. كان الشغب يزداد تطوراً منذ بعض الوقت، فتوجهت بالسؤال للضابط الهندي، الموجود بمفرده تلك الليلة، عن التدابير التي تم اتخاذها لحماية المدينة، فأكد لي أن كل شيءٍ على ما يرام، وأنه قد تم نصب الحواجز في الطرق، على كافة المداخل القادمة من المناطق النائية، لمنع دخول المتمردين.

وعلى الرغم من أن هذه الأخبار كانت جيدةً، إلا أنني كنت أشعر بعدم

ارتياح، وقررت فوراً أن أذهب بنفسي لتفتيش الطرق الخمسة التي تربط المناطق الريفية بالمدينة، للتأكد شخصياً من مدى فاعلية هذه الحواجز. وكان ما وجدته أمراً صادماً لي، فلم يكن هناك أية حواجز على الإطلاق. لم يكن ثمة حاجز واحد، ولكن كيف حدث هذا؟

في الطريق إلى منزلي كنت متوتراً للغاية، قلقاً مما يكون قد حدث، فالأمور تبدو منفلتةً من زمامها. إن القلق الذي شعرت به لم يكن مرده القلق الذي كنت أحس به فحسب، بل كان حقيقياً وملموساً يتجسد في كل مكان حولي، في الشوارع والبنايات، وحتى في الهواء الذي أتنفسه. وحين سمعت الصوت المشؤوم لإطلاق النار في البعيد، تيقنت بأن عالمنا قد تغير للأبد.

فور وصولي إلى منزلي في ماليندي، في تمام الساعة الرابعة عصراً، تلقيت اتصالاً هاتفياً من مستشار الرئيس يستفسر عن مجريات الأحداث، فبادرته أنا بالسؤال عن مسؤول المنطقة، فأبلغني بأنه ليس لديه علم بمكان وجوده، وأنه يتعذر الاتصال به، الأمر الذي يعني أنه قد اختفى، فأبلغته بأني على استعداد للخروج والقيام بجولة في حول المكان لاستقصاء الأخبار حيال مستجدات الأمور. وقد التقيت أثناء تجوالي بكثير من الأشخاص الذين أعرفهم، وكانت جميع المعلومات التي تلقيتها تفيد بأن الوضع متأزم وخطير للغاية.

وبعدما أنهيت جولتي في أرجاء المكان توجهت إلى النادي الاجتماعي حيث تلقيت هناك اتصالاً هاتفياً من مستشار الرئيس، وأعطيته صورة واضحة عن الوضع في الخارج.

كانـت قوات المتمردين تتقدم بسرعة هائلة تبعث على القلق، وكنت أشعر بالزمن يجري جريان الماء بين أصابعي. ولم يكن لدي أدنى شك بأن حشود الغوغـاء التي تتقدم بوحشية إلى المدينة من كافة الاتجاهات، سوف تترك خلفها أثراً كبيراً من الدمار والدماء. وبقلق شديد هرعت إلى منزلي، وأغلقت الباب سريعاً وأحكمت مزلاجه. لم أفكر في النوم أبداً، بل أخذت أذرع المكان جيئة وذهاباً.

في تمام الساعة الواحدة صباحاً جاءني صوت الهاتف مدوياً، حيث تلقيت تعليماتٍ من مستشار الرئيس بالذهاب فوراً إلى مركز قيادة الشرطة، للتنسيق مع قائد الشرطة لاتخاذ التدابير للدفاع عن المدينة. وقد كنت أعلم أنني أخاطر بحياتي بمغادرة المنزل، ولكنني كنت أدرك أيضاً أن الفشل في اتخاذ التدابير الحاسمة لمواجهة خطرٍ مسلح ينذر بالوقوع، سيكون أمراً كارثياً.

ولكن الوقت كان متأخراً جداً على فعل أي شيءٍ، فقد سمعت فور خروجي من المنزل أصوات إطلاق النار الغاضبة تملأ المكان. ورغم ذلك تمكنت من الوصول إلى مركز الشرطة، وبقيت هناك حتى الثالثة صباحاً، حيث جاء قرابة 12 شرطياً من قيادتهم، وأفادوا بأنهم لا يمكنهم مواصلة مهمتهم نظراً لنفاد الذخيرة التي بحوزتهم. هؤلاء الشرطة كانوا قد اتصلوا مراراً بقائد المركز لإحضار المفاتيح الخاصة بمستودع أسلحة قيادة الشرطة، وكان يعدهم بالمجيء، إلا أنه لم يأت.

لقد بـــدا لي الأمـر غريبـــاً، إذ لـم يتم منح رجال الشرطة المفتاح الخاص بقسم الأسلحـــة، في حين كان القائـد يعيق رجاله من الوصول للسلاح. ما الذي يجري؟ إن نذر الشؤم تتفاقم. أنى للشرطة، بدون السلاح، مواجهة هذا المد الضاري وإيقاف هذه الجموع الهائلة من المتمردين المدججين بالسلاح. وفي سياق هذا السعي الدؤوب للبحث عن الحلول اتصلنا بالمستشار الأوروبي لرئيس الوزراء وأبلغناه بما يجري، فأبلغنا بأن المسؤول البريطاني قد توجه إلى محطة ماليندي في ستون تاون، وطلب منا اللحاق به إلى هناك في أسرع وقت ممكن.

أسرعت متوجهاً إلى ماليندي، حيث وجدت المسؤول البريطاني مستغرقاً في نقاشٍ مع مساعده المحلي. ودون ترددٍ هرعت إلى الداخل وعرضت المساعدة بأية وسيلةٍ ممكنةٍ، إلا أنه تم إبلاغي بأن مساعدتي غير مرغوب بها! شعرت حينها بفورةٍ من الغضب تجتاحني، وعدت أدراجي إلى مكتبي. وفي

تمام الساعة الخامسة صباحاً تلقيت أوامر عبر الهاتف باستقبال فريقٍ بريطانيٍّ قادم من كينيا، والذي في ما يبـــدو، كـــان مكلفاً بتهدئة الوضع سلمياً من خلال الحوار. وقد تبين لي لاحقاً بأن السلطات الكينية لم تسمح للطائرة بالمغادرة إلى زنجبار.

وهنا أدركت السر لماذا لم يسمح بمفتاح مستودع السلاح، وهو ضمان عدم إتاحة استخدام الأسلحة لحماية المدينة. كما أدركت بأن الهدف من وراء نقلي كان لاستبدالي بمسؤولٍ آخر يضمن عدم دراية الحكومة بتقدم المتمردين.

كنت أعلم أن قيادة المركبة للمطار ستكون مخاطرةً كبيرة، فاتخذت الاحتياطات اللازمة لتأمين الوضع قبل المغادرة. وفيما كان ينتابني شعورٌ عميقٌ بعدم الارتياح، أحسست بأن يدي ترتجف فيما كنت أحاول الاتصال برقم هاتف المطار. لقد رن الهاتف عدة مـــرات قبـل أن يجيب صديقي الحميم الفاضل علي بن خليفة المسكري، الذي كان مسؤولاً للمطار. وما إن تحدث علي حتى شعرت بالذعر في نبرات صوته، إذ نصحني بعدم الذهاب، نظراً للتقدم السريع للمتمردين نحو المطار، مشيراً بأنه هو أيضاً على وشك مغادرة المطار. لقد كان الوضع مروعاً للغاية.

بعد عدة دقائق هاتفني مستشار رئيس الوزراء لإبلاغي بعدم الذهاب إلى المطار، لأن الفريق البريطاني المتوقع مجيئه من كينيا لن يأتي. وفي الوقت ذاته كان فريق من المتمردين يتقدم نحو مركز الشرطة، حيث قاموا بمحاولتين للاستيلاء على المركز، ولكنه تم صدهم. وعبر نافذة مكتبي كنت أشاهد الهجوم الذي تعرض خلاله عدد من المتمردين لإطلاق النار، حيث سقطوا دون حراك، ممدين في الغبار المضرج بالدماء. لقد كان مشهد الرعب يجري هناك أمام عيني مباشرةً، والأسوأ ما زال قادماً.

لقد كان الوفاء بقسم الولاء يمنعنا، كمسؤولين كبار، من مغادرة مواقعنا، في ظل ظروف حرجةٍ كهذه، من دون تلقي الأوامر بذلك. ولحسن الحظ تلقينا

اتصالاً هاتفياً، بعد ذلك بقليلٍ، ينصحنا بالمغادرة إلى منازلنا. ولم يمض وقت طويل على وصولي إلى المنزل، حتى طرق أسماعنا إعلان مفاجئ عبر المذياع. لقد كان ذلك الرئيس كارومي يصدر أوامره إلى كافة موظفي الخدمة المدنية للتوجه فوراً إلى مقار عملهم وتسليم مفاتيح مكاتبهم. لقد بات واضحاً بأن المتمردين الآن يحكمون السيطرة على زمام الأمور.

في اليوم الأول للثورة تم إعلان عبيد أماني كارومي (1905- 1972) رئيساً لزنجبار. وفي اليوم التالي قام بزيارة لكافة المقار الحكومية الرئيسة لاستلام مفاتيح المكاتب، بما في ذلك مكتبي الخاص كمفوض للإقليم. لقد كانت الأمور تزداد سوءاً، وكنا في ترقبٍ شديدٍ، كمن يتعلق بحافة جرفٍ، لا يدري كم سيلبث، أو ما الذي سيحدث لاحقاً.

في اليوم الثالث اقتحم مكتبي دون استئذان رجلٌ شابٌّ من أتباع المدعو بابو، القائد الاشتراكي، وتحدث معي بطريقةٍ فجةٍ ووقحة، مصدراً أوامره لي بفظاظةٍ متناهيةٍ، قائلاً: "اتبعني إلى مركز الشرطة". لقد كان فتىً أرعن وحديث التجربة، الأمر الذي أصابني بالصدمة والذعر، فسَرَتْ في أوصال جسدي رعشةٌ عميقةٌ، لا سيما أنني لم أملك سوى الانصياع لأوامره.

كان مركز الشرطة محاذياً لمقر مكتبي، فتبعت الفتى الشاب إليه، بينما كانت تجيش في نفسي مشاعر الذعر، فسلمني إلى مسؤول المركز، كما لو أنني كنت مجرماً. لقد وجدت نفسي أحدق في المكان، بينما يختفي معتقلي الشاب عبر بابٍ خلفيٍّ، كروحٍ شريرة. وبعد فترةٍ وجيزةٍ وصلت حافلةٌ محملةٌ بمسؤولين وموظفين غاضبين، اعتُـقلوا بطريقةٍ فظةٍ وغير قانونية. وقد نُـقلت معهم إلى مبنى محطة راديو صوت زنجبار.

لقد زجوا بنا في غرفةٍ واسعةٍ في الطابق العلوي، حيث وجدنا قادة الثورة يجلسون معاً، بظهور مستقيمةٍ وصدورٍ يملؤها غرور السلطة الجديدة. وفي أجواءٍ من المهابة المفتعلة طُلِب منا رفع أيدينا عالياً في الهواء، كما لو أننا

أعداء، وأعلنا للتو استسلامنا لقوتهم القاهرة. لقد كانت لحظةً غرائبيةً سوريالية يسودها التوتر. لم أشعر حينها بأنني أنا ذلك الرجل، بل شعرت بأنني شخصٌ أجنبي في ظروفٍ غير مألوفة. لم نكن نعرف ما الذي سيفعله معتقلونا بنا تالياً، وكنت أشعر في داخلي بأننا على وشك أن تطلق النار علينا.

بعد ذلك سمعت وقع حذاء لشخصية متنفذة تتقدم نحونا. لقد كان شخصاً كينياً يدعى هاشل أوكيلو، تم تعيينه جنرالاً للتو، وقد جاء لتفتيشنا. ويبدو أن هذا هو الشخص الذي قاد المتمردين. أخذ أوكيلو يمر أمام الصف جيئة وذهاباً، بينما كانت كل خطوة من خطوات حذائه تحدث ارتطاماً مدويًّا. كان الجنرال ذا سحنة مائلة للسواد، ويتصرف برعونة شديدة. وعلى نحو لا يخلو من الفظاظة أمر أوكيلو الحراس بإخلائنا جميعاً إلى مكان آخر، حيث تم اقتيادنا كأسرى، بقلوب تكاد تقع في صدورنا من هول الفزع، لا نعلم إلى أية وجهة سنمضي. لقد شعرت حينها برعشة باردة تسري في جسدي، وساورني شعور عميق بأن أملي في زنجبار التي أحب قد بات ضئيلاً.

المارشال جون أوكيلو متوسطاً مجموعة من الثوار

الفصل الثاني

كيف بدأت فصول القصة؟

يعود الوجود العماني في زنجبار وفي أجزاء أخرى من شرق أفريقيا إلى ما قبل الأحداث الدرامية لثورة 1964م بكثير. ويعود ارتباط عمان بشرق أفريقيا إلى ما قبل عدة قرونٍ نتيجة التجارة المتبادلة، التي كانت تعززها الرياح الموسمية التي تبحر بها السفن الشراعية من عمان جنوباً خلال فصل الخريف، وشمالاً خلال فصل الربيع. ثم أدت الروابط التجارية أخيراً إلى علاقات التزاوج ومن ثم الاستقرار. وقد شكلت زنجبار، على وجه الخصوص، بتربتها الخصبة وفرصها التجارية الوفيرة، نقطة جذب كبيرة بالنسبة للعمانيين الآتين من الصحراء.

لقد كان الحاكم العماني، سعيد بن سلطان (1804-1856) "الملقب بالكبير" ذا رؤيةٍ ثاقبةٍ، حيث استطاع أن يوسع رقعة تجارته من مياه الخليج العربي إلى الشواطئ الغربية للمحيط الهندي وعبر شواطئ أفريقيا الشرقية. وحينما لاحت الفرص الجيدة لتحقيق الازدهار التجاري في زنجبار، في مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر، اتخذ السيد سعيد بن سلطان قراراً ذكياً بإقامة عاصمة ثانية لإمبراطوريته التجارية في مدينة زنجبار، المدينة الرئيسة على الجزيـــرة. وإثـــر تولـــي السيـــد سعيد مقاليد الحكم في منطقة الشرق الأفريقي، تزايدت حركة هجرة العمانيين إلى تلك البلاد الواقعة تحت سيطرته، وأسهموا في تنميتها.

كان من بين الذين أغراهم نداء الجزيرة الأسطورية الواقعة خلف البحار البعيدة بالرحيل، أحد الأشخاص البارزين في قبيلة البوسعيد الحاكمة، ألا وهو جدي السيد حمد بن أحمد البوسعيدي، الذي عاش في الساحل الشمالي لعمان، في مدينة بركاء النائية التي تعتمد على الزراعة وصيد الأسماك، حيث ولد وترعرع. وتتميز هذه المستوطنة البشرية القديمة، بقلعتها التي تعد معلماً بارزاً تحرس السواحل وتطل على المناطق الخلفية.

وقد كانت الحياة في بركاء في القرن التاسع عشر بعيدةً كل البعد عن الراحة، حيث كانت الموارد شحيحةً والطقس قاسياً جداً، خصوصاً في أشهر الصيف التي تمتد من مارس إلى أكتوبر، حيث ترتفع درجة الحرارة متجاوزةً 40 درجةً مئوية. وقد كان المتنفس الوحيد يتمثل في اللجوء إلى العرائش السعفية، المقامة تحت ظلال بساتين النخيل، والمخصصة للاستخدام في فصل الصيف.

كان ذلك في ثمانينيات القرن التاسع عشر، حينما اتخذ جدي قراره الحاسم، بمغادرة منزله الوحيد الذي لم يعرف غيره، متتبعاً أحلامه نحو حياةٍ أفضل في زنجبار. جمع جدي قواه وشيئاً من قليل المتاع، وودع جدتي السيدة خولة وطفليهما، متماسكاً قدر الإمكان، وعلى جناح السرعة امتطى جمله، وانطلق مسرعاً عبر غبار الصحراء.

صورة لبعض وجهاء مدينة بركاء في عام 1914

قضى السيد حمد الليالي والأيام، مسافراً عبر مسارات الصحراء، من بزوغ الفجر حتى المغيب، تماماً مثل أسلافه البوسعيديين، الذين سافروا قديماً عبر صحارى اليمن الشاسعة وشمال عمان، بحثاً عن أرضٍ أخرى للحياة، حين استقروا أخيراً في واحة أدم في قلب منطقة الداخل من عمان، حيث ازدهرت المنطقة بوجودهم. وبذات البسالة واجه جدي رحلة أكثر طولاً عبر المحيطات والصحارى، متطلعاً إلى ما تسوقه الصدفة من آمال.

لقد كانت الرحلة الأولى للسيد حمد تجاه ميناء مطرح، الذي كان يوماً قلب الحراك التجاري لما بات يعرف بمنطقة العاصمة لعمان. وهناك قام جدي ببيع جمله المنهك، بأعلى سعرٍ حصل عليه عبر المزايدة، ثم أخذ طريقه نحو واجهة المرسى، حيث ابتاع تذكرةً لسفينة الداو المسافرة تالياً إلى بومباي، والتي تصل وفقاً لسوانح الريح.

بعد ذلك بأيامٍ وصلت السفينة إلى الميناء، واجتمع خلقٌ كثير لاستقبال أقاربهم، ومشاهدة تفريغ الحمولة. وكأنني كدت أسمع صرير أخشاب هذه السفينة القديمة بينما كان الركاب يغادرونها. وعبر مخيلتي كنت أرى تلك السفينة الصغيرة، وهي تمخر عباب الماء، وعلى متنها جدي يراقب جبال الحجر المهيبة، بينما بلاده الحبيبة تختفي رويداً رويداً، ثم فجأة يدير وجهه نحو نهايات الماء، معانقاً المجهول.

لقد استطاع السيد حمد تكوين صداقاتٍ مع رفاقه في تلك الرحلة، مستمتعاً بالعلاقات الحميمة التي تنشأ خلال رحلاتٍ طويلة كهذه عبر البحر. وقد واجهوا معاً قساوة السفر، عبر الأمواج، مقتسمين الأماكن الضيقة فوق ظهر السفينة التي كانت تخلو من المقصورات أو أبسط وسائل الراحة. أيامٌ طويلة من الرتابة والضيق وعدم الراحة مرت قبل أن ترسو السفينة وينزل الركاب منها إلى صخب بومباي.

وكما هو الحال الآن، فقد كان ميناء المدينة العتيقة يعج بالحركة

والألوان، بقواربه المختلفة قادمةً وذاهبةً، ومتاهات من الممرات الضيقة، والمحلات القديمة، وعربات الركشة السريعة، وعربات بطيئة تجرها العجول، وزحام المارة، والدراجات المتهالكة.

وحيداً في هذه المدينة المزدحمة، محاولاً إيجاد موضع قدمٍ له، كان السيد حمد مميزاً بين الجموع بردائه العماني وعمامته، وقد تم تمييزه مباشرة كوافدٍ جديدٍ، حيث حاصره المتسولون، أثناء مروره عبر الطريق المزدحم، بحثاً عن مأوى يقيم فيه.

كان جدي متعباً ولكن متحمساً، إثر سعيه الدؤوب للبحث عن مكان ملائـم لتناول الطعام، حين تأمل الفصل التالي من رحلته، بينما كان يتناول رغيفاً طازجاً من الخبر مع طبق من البهارات الحارة. إنه الآن بعيدٌ من وطنه، ورحلته النهائية ما زالت تبعد أميالاً طويلةً، في أراضٍ مجهولةٍ، يحلم بأن تكون الأمل الموعود.

كان من دواعي السعادة، أنها لم تكن سفينة داو، وإنما كانت سفينة بخارية كبيرة مريحة تلك التي أقلت جدي من بومباي عبر مياه المحيط الهندي إلى سواحل الشرق الأفريقي. وبالإضافة إلى المسافرين، كانت الباخرة تقل سلعاً تجاريةً فاخرةً مثل: القطن، والشاي، والرز، والقهوة، والتوابل مثل: الكركم، والكمون، والكزبرة، وجوز الطيب.

الرحلة التي استغرقت أكثر من ثلاثة أسابيع، كثيراً ما واجهت بحاراً هائجة ضربت السفينة بعنف، وبللت جميع من كانوا على متنها، إلا أنه كانت هناك أيامٌ كثيرةٌ كان البحر فيها هادئاً، تسطع عليه أشعة الشمس المتلألئة. وقد كان الركاب خلال هذه الفترات الهادئة يستمتعون بمشاهدة طيور البحر، وأحياناً الدلافين والحيتان.

مدينة زنجبار اليوم كما تبدو من البحر "د. باتريشيا جروفز"

بعد مضي أيام لم يمكن أثناءها رؤية أي شيءٍ سوى المياه الممتدة إلى اللانهاية. لا بد من أنها كانت لحظة غايةً في الدهشة، حينما بدت لأول وهلةٍ "بمبا" تلتها لاحقاً "زنجبار"، مثل خيالات مضيئة تلوح في الأفق. وكلما اقتربت السفينة، كانت تربة زنجبار الحمراء تقترب بأعشابها الخضراء المورقة، بعيدة كل البعد من الصحارى العربية. وما زال الأجمل قادماً، مع الجو المعتدل، والناس الهادئين، ومشاهد الخصب التي تذهب بالعقل، الذي تميزه الرائحة النفاذة لنبات القرنفل الذي جلب الرخاء للجزيرة.

بيت العجائب

قلعة العرب القديمة في ستون تاون "د . باتريشيا جروفز"

وما هي إلا لحظاتٌ قليلةٌ حتى دخلت السفينة إلى المياه الخارجية لجزيرة زنجبار، فيما كانت الجزيرة بأكملها تبدو، في تلك اللحظة، وكأنها تضيء تحت الشعاع الوردي للشمس التي أشرقت لتوها. وقد أقبلت زوارق الكنو الخشبية، ومراكب القطمران الخفيفة بأشرعتها البيضاء، تقترب نحو الباخرة عبر المياه المتلألئة، فيما أُطْلِقَتْ صيحات الترحيب باللغة السواحيلية. وبقلب تغمره الغبطة والسرور، أنزل جدي على عجل أحد السلالم الخشبية القديمة للسفينة، وهبط في زورق صغير، متجهاً نحو المياه الزمردية والفيروزية للمرسى الداخلي.

على الشاطئ، كانت تنتصب أشجار جوز الهند المتوسطة الأعمار، حيث تطل منارات مدينة زنجبار، بمبانيها البيضاء، والأبراج والشرفات التابعة للقلعة التي تعود للقرن التاسع عشر، والشرفات والأبواب ذات الزخرفة الباذخة للقصر المعروف ببيت العجائب.

عرف بيت العجائب، الذي تم بناؤه عام 1883م، كقصر رسمي للسلطان برغش، بهذا الاسم، لأنه أول منزل في زنجبار تدخله الكهرباء، وتستخدم فيه المصاعد الكهربائية. ويتميز بيت العجائب بأبوابه الفخمة ذات النقوش الأنيقة المتقنة والزخارف الذهبية، بينما تحرس المدخل أسودٌ نحاسية.

ورغم أن السيد حمد تمكن أخيراً من الوصول إلى أرض أحلامه، إلا إن إحساسه العميق بالرضى بانتهاء المهمة قد تحطم على صخرة الخوف من المجهول. فإلى أين سيتجه؟ وكيف سيعثر على حظه الموعود؟ وقد عانقت نظراته بيت الساحل، ذلك القصر الأبيض المهيب، بنوافذه الفخمة ذات الألوان المتعددة، وشرفاته ذات الأقواس البديعة، المطلة على الميناء، وبابه الخشبي بنقوشه المنحوتة ببراعة فائقة، الذي يؤدي إلى مدخل النزل السلطاني. ولم يكن يعلم السيد حمد بأنه سيمشي مراراً عبر تلك الأبواب خلال حياته، حيث سيرتبط على نحوٍ حميميٍّ مع سكان ذلك القصر.

منظر مطل على ستون تاون من متحف القصر "د. باتريشيا جروفز"

ستون تاون كما تبدو من الباحة الخلفية للقلعة القديمة "هـ. ديسترو"

إن الشوارع الضيقة داخل المدينة بالقرب من الميناء ربما ذكرت جدي بمدينة مطرح، بسلعها الغريبة، وحركتها البطيئة، وأجوائها الأفريقية المميزة. ثم ترك خلفه الضجيج والجلبة، وأخذ يتجول في أرقى أحياء مدينة زنجبار القرن التاسع عشر، حيث النوافير التي تلطف أجواء الشوارع، وكانت منازل المدينة البيضاء العالية، بشرفاتها البديعة ونوافذها المشبكة، تزين فضاء الحي. وأثناء تجواله وصل جدي إلى مسجدٍ أبيض جميلٍ، حيث استجاب لنداء الأذان للصلاة، متجهاً بالثناء العميق لله سبحانه وتعالى، على وصوله سالماً إلى سواحل زنجبار البديعة.

الفصل الثالث

المغامرات الأولى لجدي في زنجبار

تزدهر في الطقس الاستوائي الخصب في الكثير من مزارع زنجبار، أشجار النارجيل التي كانت في الأصل تنمو في الحياة البرية، حيث كانت محاصيل جوز الهند تجنى كغذاءٍ، كما كان يتم تكرارها لإنتاج لب جوز الهند المجفف، والزيت، والصابون. وإلى جانب استخلاص شراب جوز الهند، فقد كان إنتاج لب جوز الهند المجفف أسهل طرق التصنيع، إذ لم يكن الأمر يتطلب سوى تجفيف كمياتٍ كبيرةٍ من لب محاصيل جوز الهند في أشعة الشمس الوفيرة في الجزيرة. وقد كانت هذه السلعة التي تعد السلعة الرئيسة في الاقتصاد المحلي، تشحن في حزم إلى الميناء، حيث يتم تصديرها بحراً إلى المشترين، الذين كان أغلبهم من فرنسا.

عندما لمح جدي العربات التي تجرها الحمير لأول وهلةٍ، محملةً بجوز الهند المجفف، تمضي في قوافل باتجاه المدينة، دار في ذهنه أن بإمكانه أن يبتاع شيئاً من محصول جوز الهند، من أحد المزارعين المحليين، ثم يبيعه مجففاً للحصول على بعض المال السريع. ورغم محدودية إمكانياته المالية فقد كان بمقدوره توفير المقدار اللازم من المال. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى أصبح جدي أحد اللاعبين في التجارة الناشطة لجوز الهند المجفف.

ونظراً لكونه تاجراً نشطاً، فقد تمكن السيد حمد من التعرف على عددٍ كبيرٍ من الشخصيات البارزة في زنجبار. فقد أصبح السيد خالد بن برغش، ابن عم السلطان حمد بن ثويني، صديقاً حميماً له ونال ثقته. وقد أمضى الاثنان أوقاتاً طويلةً معاً، يتحدثان في شؤون السياسة، ويتبادلان الآمال حول مستقبل زنجبار. وسرعان ما أدرك جدي، من خلال مخالطته لقريبه الملكي، بأن السيد خالد لديه تطلعاتٌ بعيدة.

وقد لاحت الفرصة لتحقيق طموح السيد خالد عام 1896م، حينما توفي السلطان حامد بن ثويني، دون أبناء يخلفونه، وبقي العرش شاغراً لبرهة من الزمن.

وفي سرعةٍ خاطفة، توجه السيد خالد ومؤيدوه، بمن فيهم جدي، إلى القصر الرئاسي خلسة، تحت جنح الظلام. وتسللوا إلى داخل القصر بسهولةٍ عبر إحدى نوافذه، حيث أصبح كل شيءٍ تحت تصرفهم. لقد اجتهد الرجال لتنفيذ مهمتهم بكل إصرارٍ طوال الليل، باذلين كل ما في وسعهم من الوسائل للسيطرة على الحكم. وفي صبيحة اليوم التالي أعلن السيد خالد بن برغش نفسه سلطاناً رسمياً لزنجبار.

وكما كان متوقعاً، لم يرق ذلك للبريطانيين، فقد كان في أذهانهم شخص آخر، أنسب لمصالحهم، وهو السيد حمود بن محمد. ولئن كانت زنجبار تحت الحماية البريطانية، فقد كانت لدى البريطانيين القدرة على فعل ما يريدون. لذا فقد أصدروا أوامرهم للسيد خالد بإنزال علمه بحلول الساعة التاسعة بتاريخ 27 أغسطس 1896م، وإخلاء القصر.

وحينما رفض السيد خالد ومؤيدوه الإذعان لهذه الأوامر، نشبت أقصر حربٍ في التاريخ(*). لقد أطلقت البوارج البريطانية النار على مدينة ستون تاون،

(*) بتاريخ 25 أغسطس 1896م، استولى السيد خالد بن برغش على السلطة، وشكل جيشاً من 2,800 رجل. وبتاريخ 26 أغسطس عزز السيد خالد ورجاله حماية القصر، وأرسوا

ودمرت القصر، وجناح النساء "الحريم" وسفينة السلطان والفنار. كما تعرض بيت العجائب أيضاً لأضرارٍ طفيفة.

وعلى الرغم من عدم وقوع خسائر في الأرواح، إلا أنها سبّبت إصابات خطيرة. وقد ذكر جدي بأن جدران القصر كانت مزخرفةً بالعديد من النوافذ المطلية بالذهب. وأثناء إطلاق البريطانيين نيران بوارجهم الحربية، تصدعت النوافذ بسبب الاهتزازات الناجمة عن دوي المدافع، وتطايرت شظايا الزجاج القاتلة في الهواء، متسببةً في جرح العديد من أفراد الحاشية، وأفراد العائلة المالكة، والموظفين المقيمين في القصر. وعمت الفوضى أرجاء المكان، حيث فر المئات من الناس خوفاً على حياتهم، بمن في ذلك الأطفال والنساء، متفرقين في مختلف الأرجاء.

كان السيد خالد وجدي أثناء القصف على شرفة القصر، حيث كانا، لحسن الحظ، بمنأى عن خط النيران، إذ إنهما أدركا، فور نشوب الحرب، بأنه لا مجال لهما للصمود والمواجهة، فقررا الهروب متنكرين عبر مخرجٍ جانبي. ويقال بأن السيد خالد طلب اللجوء السياسي لدى القنصلية الألمانية، حيث تم تأمين الحماية له. ولم تمض سوى خمسٍ وأربعين دقيقةً على نشوبها، حتى وضعت الحرب الأنجلو - زنجبارية أوزارها، وعلى إثرها أعلن البريطانيون السيد حمود بن محمد سلطاناً جديداً لزنجبار.

الفرقاطة السلطانية "جلاسكو" في الميناء قبالة القصر. ومن أجل تطويق هذه التحركات، جمع البريطانيون خمس بوارج حربية في الميناء، ثم أنزلوا عدة أفواج من قوات المارينز الملكي فوق الساحل. وفي تمام الساعة 8:00 صباحا بتاريخ 27 أغسطس، صدر إنذار للسيد خالد بمغادرة القصر في غضون ساعة، وإلا فإن الحرب ستبدأ. وفي تمام الساعة 9:02 باشرت البوارج البريطانية بإطلاق النار. وبعد إغراق الفرقاطة "جلاسكو" دكوا القصر بوابل من النيران، مما أرغم السيد خالد على رفع الراية البيضاء. وقد استغرقت الحرب قرابة 45 دقيقة.

وبعد ذلك بزمنٍ طويلٍ حدث أن التقيت بالرجل الذي أمره السيد خالد، بتسلق السلالم إلى سقف القصر المحاصر، لرفع راية الاستسلام البيضاء، حينما كان قصف هذه الحرب، غير المشرفة، على أشده. وبطبيعة الحال لم تكن هناك أية رايةٍ بيضاء يمكن الحصول عليها، لذا فإن الرجل ببراعة نزع ثوبه السفلي وربطه بسرعةٍ فائقةٍ بقضيب خشبيّ. وقد كانت دهشته كبيرةً، حين رأى توقف إطلاق النار، خلال ثوانٍ معدودةٍ بعد أن لوح بثوبه الأبيض البسيط. ورغم ذلك فقد كان القصر قد تدمر بشكل جزئي، ولم يسلم منه سوى جدرانه الشمالية. وقد باشرت الحكومة الجديدة فوراً إعادة بناء القصر السلطاني، الذي تم ترميمه وتحديثه لاحقاً بعد أربعة عقودٍ، أي في عام 1936م، على نحوٍ كامل.

يقول جدي، إنه قد وجد الوضع في زنجبار محبطاً إثر هذا الانقلاب. ولأنه وافد جديد نسبياً إلى زنجبار، لم يستوعب جيداً سياسات النظام البريطاني. فقد كانت الحياة، في ظل نظام يحكمه سلطانٌ مدينٌ بالفضل للإنجليز، ويتصرف بموجب ذلك، خلافاً لرؤية جدي للحياة في زنجبار. لقد جاء إلى زنجبار واثقاً بأن البلد سيتم حكمه وفقاً لما هو متبع في عمان، من شخصٍ من أبناء بلده، طبقاً لتقاليد ملكيةٍ واضحة، إلا أنه حينما أدرك السيد حمد بأن الأمر في الواقع لم يكن كذلك، فقد قرر العودة إلى عمان.

ولكن ذلك لم يكن نهاية القصة .....

الفصل الرابع
زنجبار تصبح وطناً

شَعرَ جَدّي بالغبطة لمشاهدة عائلته مرةً ثانيةً، والعودة إلى حياةٍ هادئةٍ نسبيًّا في بركاء، مع أشيائه القديمة المألوفة لديه، وأحس بطمأنينةٍ كبيرةٍ، لكنها سرعان ما بدأت تتضاءل. لقد اكتشف بأنه أخذ ينتظر بلهفةٍ الأخبار القادمة من زنجبار بواسطة سفن الداو، مرةً واحدة في العام، حين يعود التجار العمانيون مع الرياح الموسمية. ولم يستطع السيد حمد أن يخفي تعلقه الشديد بزنجبار. وحينما تلقى تأكيداتٍ، بعد ذلك ببضع سنوات، بأن الجزيرة باتت مستقرةً من جديد، والتجارة مزدهرةً، وتضاءل التدخل البريطاني، قرر جدي العودة إلى زنجبار.

عائداً مجدداً إلى شواطئ زنجبار الخضراء، بروحٍ مفعمةٍ بالتفاؤل، كان جدي يتلهف على استئناف حياته السابقة مع أصدقائه القدامى والجدد. وقد شعر بالغبطة لاكتشافه بأن الجزيرة كانت مستقرةً ومزدهرةً وفق ما كان يتوقع - فبدأ تجارته بجوز الهند المجفف، بروحٍ جديدة. ولكن لا شيء كامل على الإطلاق، فرغم روعة البداية، إلا أن جدي بدأ يشعر بعدم الارتياح في عمله في الإشراف على إنتاج جوز الهند، نظراً لعدم تمكنه من التحدث باللغة السواحيلية أو فهمها جيداً، لتسهيل التواصل مع موظفيه الأفارقة.

ولا بد من أنه في هذه اللحظة بالذات قرر جدي التوقف للنظر بعمقٍ في مجريات الحياة. وحينما تأمل النعم الكثيرة التي أسبغها الله عليه، رأى بأن الوقت قد حان لأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، تعبيراً عن شكره لما

أولاه الله من الخير، حيث يتوجب على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أداء مناسك الحج مرةً واحدةً في العمر، لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

خرج جدي للحج برفقة صديقه الحميم الشيخ ناصر الإسماعيلي. وحين وصل الاثنان إلى جدة، تلقيا نصائح مشددة باستئجار حراسٍ لحمايتهما في الطريق إلى مكة. لقد تم تحذيرهما بأنه إذا سافرا دون حمايةٍ، فسيتم اعتراض طريقهما من قبل رجال القبائل الذين سوف يطالبونهما بدفع "ضرائب" للمرور عبر أراضيهم. وبجرأةٍ ومجازفةٍ كبيرة قرر الصديقان عدم الانتظار لإيجاد حراس لهما، وبدلاً عن ذلك ابتاعا جِمالاً وعبآ السرج بالحاجات الضرورية، ثم استعدا للمغادرة بعد أن أخذا الحيطة من خلال تسليح نفسيهما ببنادق المسكيت المعبأة بالرصاص، تحسباً لأي هجومٍ محتمل.

سلكت القافلة المكونة من شخصين طريقها الطويل إلى مكة. وبعد مضيّ نهارٍ بأكمله من السفر دون وقوع أية أحداثٍ، كانا يشعران بطمأنينةٍ وارتياح. ولكنه ما إن بدأ حلول الظلام، حتى أفزعهما صوت جمال مقبلةٍ تعدو نحوهما. وما هي إلا لحظاتٌ قلائل حين شاهداً، عبر سحابةٍ من الغبار، فريقاً من الركبان يرعد منطلقاً باتجاههما. وفيما انطلق حمد وناصر في سرعةٍ خاطفةٍ، أطلقا نيران بندقيتيهما على قاطعي الطريق، الذين تبادلا معهما عدة جولاتٍ من إطلاق النار، في حين كانت الجمال تعدو مسرعةً أكثر فأكثر. وفي خضم هذا الخطر العظيم، كان الحاجان يضربان جمليهما بالسياط لمواصلة العدو بأقصى سرعتهما، في مطاردةٍ طويلةٍ استغرقت الليل بأكمله.

وبطريقةٍ أو أخرى تمكن جدي والشيخ من الفرار من المهاجمين، والنجاة بحياتهما، فيما تراجع قطاع الطريق أخيراً، بينما واصل الحاجان المسرعان طريقهما دون توقفٍ حتى وصلا إلى مكة سالمين، ولكن منهكين. ولم يكن الأمر ذاته ينطبق على الجملين اللذين كانا هادئين، كما هي الجمال دائماً، وكانا يبدوان وكأنهما على درايةٍ بأن ثمة مكافأةً كبيرةً بانتظارهما.

كان جدي يتطلع بأن يكون الحج هو التجربة الأعمق أثراً في حياته، حيث عاد إلى حياته الطبيعية في زنجبار محصناً بروح الإلهام وإحساسٍ قويٍّ بالتفاؤل. وفي هذه اللحظة بالتحديد أخذت حياته تتداخل مع حياة الأسرة الحاكمة على نحوٍ متزايد. فقبل 1911م، بفترةٍ معينةٍ ارتبط جدي بعلاقة صداقةٍ مع السيد خليفة بن حارب، الرجل الذي التقى به في عمان قبل ذلك بعدة سنوات. وقد تقلد السيد خالد، صديق جدي، مقاليد الحكم خلفاً لصهره السلطان علي بن حمود، الذي حكم زنجبار من 1902 إلى 1911م. وقد امتدت فترة حكم السيد خليفة أكثر من أيّ حاكمٍ آخر لزنجبار، حيث استمرت لأكثر من نصف قرنٍ، وذلك من ديسمبر 1911 إلى أكتوبر 1960م.

كان السلطان علي بن حمود قد ترعرع في إنجلترا، وتلقى تعليمه في كلية هارو. وكان أول مشروع يقوم بإنجازه، حينما تسلم مقاليد الحكم، هو تأسيس مدرسةٍ باسمه – هي مدرسة السلطان. وحينها بدأ شعب زنجبار إدراك أهمية التعليم الجيد وتعلم اللغة الإنجليزية، ممتنين بالعرفان لمبادرة السلطان. وقد أسهم هذا الاهتمام بالتعليم والتأهيل في تشجيع بعض الأسر المقتدرة على إرسال أبنائهم للدراسة في الخارج، وخصوصاً إلى مصر وإنجلترا. ويحسب لهذا الحاكم التقدمي أنه أول من أدخل السيارة إلى زنجبار، وكانت من نوع ديملر.

سمو السيد علي بن حمود البوسعيدي، سلطان زنجبار 1902-1911م

وجد السلطان علي، المستنير المحب للحركة والعمل، نفسه فجأةً غير راضٍ عن الأوضاع في زنجبار، خلال تلك الفترة. فهو لم يتكيف مع الحياة في زنجبار، كما أنه لم يكن على وفاق مع القنصل البريطاني، إذ شعر السلطان بأن القنصل قد لعب دور المتطفل الذي يتدخل في ما لا يعنيه، بدلاً من القيام بدور الداعم. وقد كان يسيئه أن يرى ذلك الموظف البريطاني غير المرغوب فيه، يتدخل في كل شيءٍ يعتزم السلطان القيام به تقريباً. وحينها تجشم السلطان الغاضب مسؤولية إرسال خطاب شكوى للحكومة البريطانية، ولكن دون جدوى. وأخيراً أحس السلطان علي بالإحباط، فبدأ يمضي أغلب أوقاته متنقلاً بين إنجلترا وفرنسا.

كانت الدولة، أثناء غياب السلطان، تدار من السلطات البريطانية. ولم يكن ذلك ليرضي رعاياه بطبيعة الحال، لاسيما الكبار من أعيان العرب. لقد شعر السكان المحليون بالامتعاض، بل والانزعاج الشديد أحياناً، لاضطرارهم للذهاب لإنجاز معاملاتهم التجارية إلى الرائد فرانسيس بيرس، الذي كان يشغل منصب المقيم البريطاني من 1911م إلى 1922م، أو إلى مسؤولين بريطانيين آخرين. وكان الأمر ذاته ينطبق على السكان العمانيين. وكانت جدتي لأمي، السيدة عائشة بنت سعيد البوسعيدي، واحدة من الذين أبدوا رفضهم لهذه السيطرة البريطانية الشديدة. فقد أبلغتني جدتي بأنها تملكها ذات مرةٍ غضبٌ شديدٌ جراء المعوقات التي كان يفرضها الرائد بيرس، الأمر الذي جعلها ترمي بأوراقها على طاولته وتغادر مكتبه في الحال.

إن أقل ما يمكن قوله في هذا الشأن، أنه لم يكن متقبلاً أن يكون لديك سلطان يتجنب، بقدر الإمكان، الإقامة في بلده، الأمر الذي أفرز آثاراً سلبيةً على معنويات الشعب في كافة أنحاء الجزيرة، وأدى إلى عواقب غير حميدة. وقد كانت إحدى نتائج ذلك هي أن الناس بدأوا يعزون هذا الموقف غير المستساغ للسلطان تجاه بلده إلى تعليمه في الخارج منذ صغر سنه. وكان من آثار

ذلك تثبيط عزيمة كثير من العوائل من إرسال أبنائهم للدراسة في الخارج، حيث نشأ موقفٌ متعصب، كان دون شك، عاملاً مؤثراً في تباطؤ التنمية التعليمية للشعب الزنجباري.

على مدى قرون طويلة، كان تعليم الأطفال في زنجبار يقتصر على المرحلة الابتدائية فقط. وحين ينهي الشباب تعليمهم في المدارس لا يتسنى لهم الحصول على وظائف في السلك الحكومي، نظراً لعدم ملاءمة مؤهلاتهم الدراسية للمعايير التي وضعتها السلطات البريطانية. ولأن البريطانيين كانوا يفضلون تعيين الموظفين الجاهزين، الذين يجيدون اللغة الإنجليزية، فقد كانوا يجلبون الموظفين للمناصب المدنية من الهند، الأمر الذي جعل الشباب الزنجباري يشعر بالمرارة.

ولكن الوضع تحسن لاحقاً، حينما قرر الإنجليز توسيع نطاق الالتحاق بالتعليم، من خلال بناء المدارس في المناطق الريفية النائية. وبالتالي برزت حينها حاجةٌ مُلِحةٌ لإيجاد معلمين مؤهلين، وهو ما أدى أخيراً إلى تأسيس معهد تدريب المعلمين. وقد نتج من ذلك ارتفاع المستوى التعليمي، وأصبح الخريجون مؤهلين للمناصب الحكومية.

في يونيو من عام 1911 حضر السلطان علي بن حمود، بمعية السيد خليفة بن حارب، مراسم تنصيب الملك جورج الخامس في لندن. ومن دواعي العجب، أن هذه المهمة كانت إحدى المهام الرسمية الأخيرة للسلطان علي، حيث تخلى بعدها عن العرش بعدة أشهرٍ، وهجر زنجبار للأبد.

وبالتالي فإن الصديق الحميم لجدي، السيد خليفة بن حارب، الذي كان ولد في عمان وقدِم إلى زنجبار شاباً، قد أصبح السلطان العاشر لزنجبار من سلالة البوسعيد، التي بدأت بالسيد سعيد. وقد أقيمت مراسم التتويج بتاريخ 9 ديسمبر 1911م، في بيت العجائب.

سمو السيد خليفة بن حارب البوسعيدي، حكم زنجبار 1911م - 1960م(*)

(*) كان السيد خليفة رجلاً محبوباً من شعبه، وقد عمت بهجة كبيرة لمناسبة يوبيله الفضي عام 1936م، حيث أقيم احتفال كبير اشتمل على موكب ضخم في الطرقات وافتتاح مهيب لحدائق فورودانى أمام معزوفات الموسيقى العسكرية السلطانية. وقد قام سموه بغرس شجرة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا.

كان السلطان خليفة حاكماً محبوباً، وقد حكم زنجبار حتى وفاته بتاريخ 9 أكتوبر 1960م - أي قرابة خمسة عقود من توليه مقاليد الحكم. وكان في العام الذي سبق تنصيبه قد تزوج من السيدة معتوقة، ابنة السلطان الثامن لزنجبار، حمود بن محمد، وشقيقة السلطان الثامن، سلفه السيد علي بن حمود. وبعد قرابة ثلاثة عقودٍ، في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، تزوج السيد خليفة من أختي الحبيبة السيدة نونو.

شقيقتي السيدة نونو/ حرم سلطان زنجبار 1958م

وقد تم تشريف جدي بتعيينه رئيساً لديوان البلاط في القصر لدى السيد خليفة، وما لبث أن أصبح ساعده الأيمن. ولكنه كان يفتقد عائلته بشدةٍ طوال الوقت، وكان يفكر مليًّا في الرجوع إلى عمان، إلا أن السيد خليفة اقترح أمراً بديلاً يتمثل في أن يقوم السيد حمد بإحضار عائلته إلى زنجبار، من أجل مصلحة عمله. وقد تقبل جدي العرض بامتنان، وأرسل على الفور خطاباً إلى زوجته في بركاء، يطلب منها الاستعداد للمجيء إلى زنجبار.

تلقت جدتي، السيدة خولة بنت بدر بن حمد البوسعيدي، الخطاب بابتهاجٍ شديدٍ، حيث إنها بطبيعة الحال كانت تواجه مصاعب جمةً في ظل غياب زوجها لمدةٍ زمنيةٍ طويلةٍ. وقد أسرَّت إلي مرةً بأنها كانت تشعر بالوحدة، وكانت أحياناً تبكي حتى تنهمر دموعها بغزارة. لذا فقد هيأت السيدة خولة متاعها ومتاع طفليها أحمد وفرشوة، بسعادةٍ غامرة. وبما أنه لم يكن مألوفاً أن تغادر المرأة بمفردها، فقد رافق السيدة خولة وطفليها رجلٌ من الأقارب وقورٌ وكبيرٌ في السن يدعى السيد "الشايب" ناصر البوسعيدي. وبمزيج من مشاعر السعادة والذعر، أبحرت السيدة خولة ورفيقاها الصغيران، نحو حياة جديدة لا يمكن لها أن تتخيلها.

كان التوقف الأول في مسقط، حيث أقاموا في منزل السيد أحمد بن محمود البوسعيدي. وبعد عدة أيامٍ استقلوا سفينة إلى بومباي، تماماً كما فعل جدي من قبل، ثم يستكملون رحلتهم بعد ذلك نحو سواحل شرق أفريقيا، إلى زنجبار. وبعد ذلك بعدة سنوات، حدثني السيد أحمد عن إقامة عائلتي في منزله بمسقط، حينما جئت لزيارته. لقد قال لي بأن الفتى الصغير أحمد، والدي، كان يحب لعبة الحرب، فكان هو وأخته فرشوة يقضيان النهار في ملاحقة بعضهما البعض. لقد ترك السيد أحمد أثراً عميقاً في نفسي، إذ إنه هو الوحيد الذي عرفته من الذين رأوا والدي حينما كان فتىً يافعاً.

كانت الرحلة من عمان إلى زنجبار عبر الهند، مغامرةً إلى حد ما بالنسبة إلى عائلة السيد حمد الشابة، حيث إنه لم يسبق لهم أن غادروا بلادهم. وقد روت جدتي

لاحقاً قصةً حزينةً حدثت أثناء الرحلة من بومباي إلى زنجبار. فقد كانت على متن السفينة سيدةً هنديةً جميلةً مزدانةً بكميةٍ كبيرةٍ من الجواهر النفيسة، ظلت منعزلةً بمفردها، وكان يحيط بها الغموض. وكانت هذه السيدة الغامضة التي كان يبدو عليها الثراء الفاحش، غالباً ما تشاهد ماشيةً على متن السفينة مساءً، تحت ضوء النجوم. ولكن هذه السيدة ذات الجواهر الذهبية لم تظهر في صبيحة أحد الأيام.

لقد قام طاقم السفينة بتفتيش مقصورتها، ولكنهم لم يلمحوا أثراً لها فقد اختفت. كما تم القيام بتفتيش شامل للسفينة، إلا أن الحسناء الهندية قد اختفت للأبد، مما خلق لدى الجميع شعوراً بعدم الارتياح. ولم يكن أمام جدتي وبعض الركاب إلا أن يفترضوا بأن المرأة السيئة الحظ، قد سُرقت جوهراها الثمينة بواسطة بعض اللصوص، ومن ثم ألقي بها في عرض المياه.

بعد ذلك بأسابيع، وفي صبيحة أحد الأيام، كان جدي يجلس مع السلطان خليفة، في شرفة القصر المطلة على الميناء، مستمتعاً تحت أشعة الشمس، حين لفت السلطان انتباه جدي إلى سفينةٍ بريطانيةٍ هنديةٍ، كانت قد رست للتو في المياه الزرقاء الساكنة، خلف الشرفة. فهل من الممكن أن تكون العائلة هناك على متن السفينة البريطانية الهندية، في ميناء زنجبار؟ لقد ضحك السيد حمد قائلاً بأنه لم يتلقَّ بعد حتى كلمة واحدة من عائلته، وبالتالي فقد كان يشك بشدة حتى بأن يكونوا قد غادروا بركاء.

أمر السيد خليفة بإحضار الحامل والمجهر إلى الشرفة. وحين تأكد بما لا يدع مجالاً للشك، بأنه رأى سيدةً عمانيةً برفقة طفلين متحمسين يجريان في أنحاء السفينة، ألقى بالعدسة جانباً، ثم ناول المجهر بهدوء إلى جدي. وبشيء من التشكك قام السيد حمد بتفحص السفينة بأكملها. وقد كانت دهشته غامرةً عندما لمح خولة وأحمد وفرشوه - حينها أطلق صرخة فرح مدويةً، وهبط من مقعده، ثم توجه مسرعاً نحو الميناء، حيث استقل أقرب قارب وانطلق إلى

السفينة. لقد كانت لحظةً رائعةً باجتماع الشمل من جديد، حيث الأطفال يتقافزون في كل ناحيةٍ، والعناق الحار يملأ المكان. لقد أدرك السيد حمد حينها بأنه سيحظى أخيراً بإقامةٍ طيبةٍ في زنجبار.

خلال هذه الفترة من الاستقرار والازدهار، كانت حياة جدي مليئةً بالنشاط. وقد انتقل إلى منزل كبير برفقة عائلته، حيث كان يتمتع مجدداً بكل ملذات المستقر المقيم في وطنه. لقد عمل السيد حمد بتفانٍ في شؤون الدولة، ولكنه كان أيضاً يتمتع بحياة اجتماعية نشطة في البلاط السلطاني، أو في المناشط الترفيهية التي كان يدعو إليها السلطان. فقد كان السيد خليفة رياضياً نشيطاً، يحب الإبحار، وركوب الخيل، وممارسة لعبة البولو. لقد كان سلطاناً يعرف قيمة الترويح عن النفس، ومن الممكن أن يذهب للإبحار في أي مساءٍ حين لا يكون لديه ارتباطاتٌ رسمية.

أصبح لدى جدي أطفالٌ للاهتمام بهم طوال الوقت. وقد رتب جدي لابنه، والدي، السيد أحمد بن حمد، أن يلتحق بمدرسةٍ جيدةٍ في زنجبار. وكان أحد المعلمين مصريًّا، يدعى محمد عبد الباري، وكان جدي يعرفه شخصياً. وبالتالي فقد كان يستطيع أن يضمن بأن المعلم سوف يولي اهتماماً خاصاً بتعليم ابنه، بما في ذلك تلقي مهارات الخط، الذي كان يحظى بأهمية خاصة في ذلك العصر. لقد كان والدي طالباً مجتهداً، فلم يتطلب سوى القليل من التشجيع لبذل قصارى جهده في الدراسة، وتطبيق ما تعلمه. وبعد سنوات من التعليم المدرسي، وتحت إشراف جدي، أصبح والدي شاباً مكتملاً، قادراً على العمل في الوظائف الحكومية دون الحاجة إلى أي تدريبٍ إضافي.

وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى عام 1914م، أعلنت زنجبار الحرب على ألمانيا. لقد كانت لحظاتٍ حاسمةً في تاريخ البشرية، وكانت زنجبار مشاركةً في الأحداث. وفي سبتمبر 1914م تم إغراق البارجة الحربية البريطانية

"إتش إم إس بسيجسس" في ميناء زنجبار، بواسطة الطراد الحربي الألماني "كونينج سباج". ومن الواضح أن الصيادين المتواجدين في المنطقة، الذين كانوا في الواقع جواسيس ألمانيين، قد قاموا بإبلاغ قبطان الطراد الحربي الألماني بوجود السفينة البريطانية في الميناء – أو على الأقل فإن ذلك ما تناقله الناس.

وخلال الحرب حدث أيضاً هبوط أول طائرةٍ على الأراضي الزنجبارية. وليس ببعيدٍ عقب هذا الحدث البارز في تاريخ زنجبار الحديث، أن أصبح السلطان خليفة أول حاكمٍ لزنجبار يحظى بميزة مشاهدة دولته من الجو. لقد كان الزمن يشهد تحولاتٍ سريعةً متتالية. فلم يشهد التاريخ حرباً بهذا الحجم، أو هذه التكنولوجيا الفتاكة، بقدراتها التدميرية الشاملة. لقد كان ذلك هو العصر الذي ولدت فيه.

الفصل الخامس

قدومي إلى العالم

ما إن بلغ والدي سن الرشد، حتى أوجد له والداه الزوجة المناسبة، وفقاً للتقاليد العمانية المتوارثة منذ القدم. وقد كانت العروس المرتقبة هي السيدة كلثوم بنت سليمان البوسعيدي، ابنة السيد سليمان بن حمد البوسعيدي، وهو مقاول مدني، كيني المولد، عمل في مجال البناء والتشييد في الساحل الكيني، ومن ثم استقر في زنجبار.

ومن المؤكد أن والدي كان سعيداً باختيار والديه، إذ إن والدتي كانت امرأةً جميلةً بكل المقاييس. لقد عرفتها امرأة جذابةً تتميز بشخصيتها الحيوية، وكانت سيدةً ودودةً تتمتع بحس الدعابة، وبسمتها التي لا تفارق محياها، إلا أنها قد تكون خجولةً بين رفاقها خارج العائلة.

بتاريخ 15 سبتمبر 1914م، وفي منزل العائلة بماليندي، في زنجبار، أنجبتني السيدة كلثوم، لأكون ثالث أطفالها. ومما يؤسف له أن شقيقي الأكبر توفي وهو ما يزال طفلاً، ولذا فإن شقيقتي الكبرى، السيدة نونو، كانت الوحيدة التي قاسمتني الأخوة، وأصبحت صديقة العمر.

وقد أبلغتني جدتي لأمي، السيدة عائشة بنت سعيد البوسعيدي، بأن بيانات ميلادي كانت مدونةً ببساطةٍ على قطعةٍ ورقيةٍ، إذ لم يكن في تلك الأيام سجلٌ رسميٌ للولادات في زنجبار. وقد تم الاحتفاظ بتلك القصاصة الورقية

المتواضعة في نسخة العائلة المتوارثة من القرآن الكريم، والتي اختفت منها أخيراً. ورغم ذلك كله فقد كانت جدتي على يقينٍ كبيرٍ بتاريخ ميلادي.

وطبقاً لما كان سائداً في الأسر مثل أسرتنا، فقد كانت لدي مربيةٌ، أصبحت في ما بعد شخصيةً رئيسةً في تربيتي. كانت امرأةً زنجباريةً رائعةً تدعى عمبرة، وقد كانت والدتها عاملة منزلٍ في بيتنا. لقد عاشت عمبرة كل حياتها في دارنا، وكانت تتولى كل ما أحتاجه من خدمة، في فترة نشأتي. إنني أحتفظ بذكرياتٍ عزيزةٍ عن عمبرة منذ بداية حياتي، حيث كانت تقص لي الحكايات قبل النوم كل مساء، وتغني لي التهاويد الجميلة برفقٍ وحنانٍ، مثل: كيتوندو، والأمير الطائر في السلة، وخذني إلى أمي.

وقد تقفز عمبر عالياً وترقص أحياناً كالشيطان من أجل تسليتي. وبطبيعة الحال فقد أحببت ذلك، وكنت أضحك وأصفق بيدي، بينما كانت مربيتي، التي كانت رزينةً في العادة، تدور في أرجاء الغرفة. وقد سألت عمبرة مرة، إذا ما كانت قد تلقت دعوة للمشاركة في رقص الشيطان، وإذا كانت ستصطحبني معها في المرة القادمة. ولكن واحسرتاه، فقد كانت الإجابة الوحيدة التي يتلقاها الأطفال غالباً ما تكون: "لا يسمح بدخول الأطفال".

كانت لدي علاقةٌ وثيقةٌ أيضاً بجدتي السيدة عائشة. وقد بدأت هذه العلاقة، حسبما أوضحت جدتي، ببكائي الشديد أثناء الليل، حينما كنت صغيراً. وكان يفصل بين منزلنا ومنزل جدتي ممرٌّ ضيقٌ فقط. وكانت حينما تسمع بكائي، تنادي أبي من خلال النافذة، لإحضار الصبي إليها. لقد كانت تدرك بأنني كنت أبكي بسبب الجوع، ولكنها لم تطلع والدي على هذا السر، إذ كانت ترغب في إبقاء حفيدها الجديد معها أطول فترةٍ ممكنة. وفور مغادرة والدي، كانت تقوم بإعداد عصيدةٍ خفيفةٍ وإطعامها لي. وكنت أتوقف عن البكاء على الفور تقريباً، إلا أن والديَّ لم يكونا يعلمان السبب، الأمر الذي ظل غامضاً بالنسبة لهما.

لقد أحبتني جدتي عائشة ودللتني طوال حياتها، وحينما كانت طريحة الفراش، في أيامهـــا الأخيـــرة، طلبت من والدتي أن تناديني للجلوس بجوارها. وعندما جئتها طلبت مني جدتي بأن أغير وضعيتها في السرير، فأشارت والدتي بأنها هي ستقـوم بذلك بمنتهى السعادة، ولكن جدتي كانت فقط ترغب في أن أظل قريباً منها، فردت بإصرار: "إن حفيدي يجيد تغيير وضعي بشكل أفضل".

كانت جدتي عائشة امرأةً رائعةً، تفكر دائماً في الآخرين. وحين دنا أجلها طلبت من كافة أقاربها وأصدقائها المقربين، بأن يأتوا لرؤيتها، حتى يتسنى لها إلقاء تحية الوداع الأخير على كل واحدٍ بمفرده. وقد حضر أكثر من ثلاثين امرأةً، ثم بدأت جدتي وداعها المؤثر. وبينما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت توصي النساء بأن يحببن بعضهن بعضاً، وأن يكُنَّ في عون بعضهن.

أعتقد أن "أفلاطون" هو الذي قال بأن شخصية الفرد تتحدد في سن الخامسة، وقد يكون ذلك صحيحاً. وبالنسبة لي فقد كانت أولى تجاربي في جوٍّ مترعٍ بالحب والرعاية، في منزل أسرتي، برفقة والدي وشقيقتي، وبين أفراد العائلة بأسرها، كما هو الحال بالنسبة إلى محيطنا الاجتماعي كاملاً. وأعتقد أن ذلك كان عاملاً مثبتاً لي في المحن الكثيرة التي واجهناها في الحياة، وذلك ما جعل لحظات الفرح والسعادة عزيزةً وأكثر عمقاً في الشعور.

المؤلف مرتدياً العمامة السعيدية في زنجبار، عام 1945م

الفصل السادس

النشأة في أوقات استثنائية

في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى (1914م- 1918م) اجتاحت العالم انفلونزا وبائيةٌ، وقد أصيب بها عددٌ كبيٌر من الناس في زنجبار. ومن المحزن أن أحد هؤلاء كان والدي أحمد، الذي توفي حينما كنت في الثالثة من العمر، فكان ذلك المصاب الجلل بمثابة خسارةٍ فادحة بالنسبة لعائلتي.

وعلى الرغم من فقدان والدي في ذلك العمر المبكر، إلا أن لدي الكثير من الذكريات السعيدة عن طفولتي وشبابي. لقد نشأت في حي ماليندي، حيث كان يقيم السيد خالد بن محمد بن سعيد بن سلطان، الشقيق الأكبر للسلطان حمود بن محمد، وعم سمو السلطان علي بن حمود، وكنا كثيراً ما نذهب لزيارته. وإنني أحتفظ بذكريات تلك الزيارات التي لم تكن تخلو من المتعة والأحداث المشوقة. لقد كان السيد خالد رجلاً مثيراً للإعجاب، طوله ستة أقدام، ذا وجه مهيب، ولحيةٍ مشذّبة، ورأسٍ يغطيه شعر فضيٌّ كثيف. وكان السيد خالد، ذا شخصيةٍ قياديةٍ، يتمتع بصوت عميقٍ نفاذٍ، حتى إن الغرفة كانت تهتز عند حديثه.

كان لدى السيد خالد شقيقتان كريمتان هما، السيدة علياء والسيدة فاطمة، اللتان كانتا شخصيتين مهمتين ومحبوبتين لدي في طفولتي. وعلى غير ما هو معتاد في زمنهما، وفي وضعهما الاجتماعي أيضاً، فإن السيدتين لم

تتزوجا أبداً. وعلى الرغم من كونهما عانسين، فقد كانت السيدة علياء والسيدة فاطمة تحظيان بتقدير الناس، ليس لكونهما سيدتين ملكيتين، ولكن لكونهما سخيتين، ودودتين، وعلى درجةٍ عاليةٍ من التدين.

هذه الصورة للسيدة سالمة، ابنة السيد سعيد بن سلطان، سلطان عمان وزنجبار، معروضة في متحف القصر في ستون تاون. ويشخص كتاب السيدة سالمة "مذكرات أميرة عربية" تفاصيل الحياة في قصر متوني وغيره من قصور والدها في زنجبار في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، وبدايات خمسينياته

أطلال قصر السيد سعيد في متوني. "د. باتريشيا جروفز"

المسجد القديم في متوني. "هـ. ديسترو".

لقد قضينا من الأوقات السعيدة في سنوات طفولتي، ما لم أكن معه لأقايض حياتي مع أي شخص آخر. وبما أنه لم يكن لدينا دُمى، فقد كنا نبتكر الأشياء لنلعب بها، وكانت لعبتي المفضلة سيارة بدائية مصنوعة من الألواح الخشبية. وكنت أجلس بداخل تلك السيارة المضحكة وأعتمد على ساقيّ لأجعلها تتحرك إلى الأمام. كما كنت أيضاً أتسلى بتدوير عجلة بواسطة قضيب، مستغرقاً في أحلام يقظتي، بينما كانت العجلة تدور وتدور. وكنت أحياناً ألعب الدومينو، أو لعبة أخرى تقوم على عدّ الأصداف وتسمى "امداكو" باللغة السواحيلية. وقد كنت محظوظاً جداً حينما حصلت على نموذج حقيقي لسكة قطار، وبرفقتها قطار التفافي ومحطة، إذ كنت أنا ورفاقي نقضي الساعات الطويلة في لعب أدوار عمال التذاكر والمهندسين المشغلين بذلك القطار، نتوقف في المحطات ونستبدل العربات.

وفي بعض أوقات السنة، كنا نذهب إلى منزلٍ في البر الأفريقي، يبعد قرابة أربعة أميالٍ عن ساحل مدينة زنجبار، بالقرب من قصر متوني. وهو القصر الذي تم بناؤه في مطالع القرن التاسع عشر الميلادي، بواسطة السيد سعيد بن سلطان الكبير، وكانت تسميته على اسم ينبوع، كان قد تم تحويل مجراه ليمر عبر الطابق الأرضي للمنزل، مروراً بالنوافير الجميلة في الحدائق، قبل أن يصب في مياه البحر. ويقع قصر متوني، الذي يعد أكبر قصور السيد سعيد، بمنأى عن الساحل، في مشهدٍ خلابٍ وسط بستان من أشجار النخيل والمانجو، وكان يقطنه أكثر من ألف نسمةٍ، ويشتهر بروعة حماماته الفارسية والتركية(*).

كان منزل خالد الريفي البديع في متوني قائماً على مرتفع سهليٍّ مطلٍّ على البحر. وفور وصولنا قامت السيدة فاطمة بإرسال أحد الرجال إلى القرية لشراء أسماك السردين، التي يتم غليها سريعاً مع الزبدة والرز، ثم وضعها على الأرض في الفناء الأمامي لجلب الكلاب. وبالنسبة لنا كأطفالٍ فقد وجدنا الأمر

(*) وفقاً لريوتيه إميلي، مذكرات أميرة عربية، منشورات غاليري، زنجبار، 1998، ص 1-3.

ممتعاً، بأن تجتمع كل الكلاب الضالة في الفناء، دون مناداتها، تماماً في الموضع الذي يوضع فيه الأكل. وكان هناك كلابٌ صغيرةٌ وأخرى مسنةٌ، تنبح وتتدافع لالتهام السردين. وكانت هذه الإثارة المفاجئة تمثل دائماً بدايةً مدهشةً لعطلاتنا، وكان يروق لنا أن يكون للكلاب الصغيرة أطباقها الخاصة بها.

وقد أبلغتني السيدة فاطمة، أخت السيد خالد، بأن هذه الكلاب كانت أفضل الحراس، بل هي أفضل من الحراس الآدميين، إذ إنها حينما تشعر بالشبع، تود أن تعبر عن امتنانها، لذلك فقد كانت تتولى حماية الممتلكات. وقد كانت تنتشر أثناء الليل في مواقع استراتيجيةٍ، كما لو أنها حراسٌ على رأس عملهم. وقد لاحظنا أنه إذا ما اقترب أحدٌ ما من المنزل أثناء الليل، فإن جميع هذه الكلاب تقوم بمحاصرة ذلك المتطفل، وتندفع بقوةٍ لمهاجمته. وعلى وقع هذا الضجيج والهياج يستيقظ سكان المنزل، ويضطر المتسلل للهرب.

كنا خلال إجازتنا نذهب أحياناً مشياً إلى قبر العالم الجليل الشيخ ناصر بن جاعد الخروصي، الذي يقال إنه قد أتى به إلى زنجبار الحاكم المعروف السيد سعيد بن سلطان (1804 - 1852) ليكون مستشاره الخاص للشؤون الدينية. وقد دفن الشيخ ناصر بالقرب من موقع قصر متوني ومسجده.

وعلى الرغم من أن قصر متوني قد أصبح أطلالاً منذ أمد بعيد، إلا أن المسجد الذي شيده السيد سعيد مازال قائماً حتى يومنا هذا، ويقع على الشاطئ مباشرة. وقد صنع محراب المسجد من الأقواس الأحادية والثنائية، ويتميز بتصميمه البديع، طبقاً للطراز التقليدي العماني.

وبطبيعة الحال، لم يكن شبابي كله عطلاتٍ ومغامراتٍ، وإنما كانت المدرسة مكوناً جوهرياً في حياتي. ورغم أن الأمر قد يبدو مستغرباً، ولكنني في الحقيقة كنت أستمتع بأيام الدراسة، وقد أوليت الدراسة أهميةً خاصة، سيراً على نهج والدي رحمه الله. ويشكل الأشخاص الذين قابلتهم عاملاً هاماً في المعادلة الحياتية بالنسبة إلي، فقد كان هناك معلمون وشخصيات رسمية أثرت

في تكويني بشكل عميق. وعلى سبيل المثال، أتذكر بقوة الشيخ عبدالله بن محمد الحضرمي، مدير المدرسة الثانوية في "مانزيموجا"، ذلك الشخص المهيب، الذي كان أول من يقف في القاعة في الصباح الباكر، حينما كنا نذهب للدعاء قبل الدراسة. لقد كان الشيخ عبدالله رجلاً دقيقاً للغاية، انضباطيًّا بحق، مشغولاً بشؤون إدارته وتسييرها. وكان يحب أن يرى الأشياء تنجز بدقةٍ متناهيةٍ، ودون أية هفوات.

إنني على ثقة بأن تأثير الشيخ عبدالله أعانني أنا وبعض رفاق الدراسة لنحيا حياةً أكثر انضباطاً مما كان من الممكن أن تكون لولا ذلك التأثير. ولكننا في وعينا المبكر كنا نعتبر الشيخ عبدالله شخصاً مضحكاً، فقد كان يغضب بشدةٍ حينما يلوِّح له أحد الطلاب مرحِّباً به أثناء قيادته دراجته الهوائية، إذ إنه لسببٍ أو آخر، لم يكن يستطيع رفع يده لرد التحية دون أن تتذبذب الدراجة!

لقد كنا نعد وضع اليد على مقود الدراجة والتلويح بالأخرى لرفاقنا أمراً في غاية السهولة، إلا أن الشيخ عبدالله كان يعد ذلك التصرف أمراً في غاية الخطورة. لقد كان يحاول جاهداً أن لا يدع طلابه يلهونه عن المضي قدماً في الطريق، وكان في الحقيقة يشك بأن الطلاب يفعلون ذلك عمداً بهدف إسقاطه من على الدراجة. وبعد نضج تفكيرنا، شعرت بفخرٍ بأننا لم نكن نتقصد الاستخفاف به. ومن المؤكد أن تأثيره الانضباطي لم يقتصر على الصفوف الدراسية فقط، بل تعدى ذلك إلى آفاقٍ أرحب.

وكان عبدالله، كمعلِّمٍ، مهتماً بتاريخ زنجبار، لاسيما في ما يتعلق بتعاقب الحكام على عرشها. أما في ما يتعلق به كمدير، فقد كان دائماً ما يأتي إلى قاعة الامتحان ليقدم لنا بعض النصائح. وكان بين الحين والآخر يردد مثلاً عربياً ما زلت أتذكره حتى اليوم، وهو يقول: "يوم الامتحان، يكرم المرء أو يهان"، لذلك يتوجب عليكم أخذ الوقت الكافي للتفكير مليًّا في إجاباتكم.

وكان كل عامٍ يأتي إلى مدرستنا طبيب أسنانٍ وفق جدول معينٍ، لفحص

أسناننا. وكان اثنان من رفاقي في الصف قد تم إبلاغهما بضرورة مراجعة المستشفى لتلقي العلاج. وعند التفكير في المستشفى شعر الطالبان بالخوف فقررا الهرب من الصف. وحين نظر الطبيب عبر النافذة شاهد الولدين يجريان بأقصى سرعتهما، فخرج مسرعاً إلى فناء المدرسة وناداهما باسميهما، إلا أن ذلك، بطبيعة الحال، لم يزدهما إلا خوفاً من طبيب الأسنان.

وفي مرحلة دراستي الثانوية التقيت بكثير من المعلمين، الذين كان لكل واحدٍ منهم شخصيته وطبيعته الخاصة. وقد أبقونا مثقلين بمطلبات الدراسة في الموادِ الاعتيادية مثل: التاريخ والرياضيات والعلوم. كما كان يتوجب علينا أن نتعلم اللغة العربية والسواحيلية والإنجليزية. وأتذكر أن مدرس اللغة الإنجليزية كان يأتي إلى منزلنا لإعطائي دروساً خصوصية. أما دراسة القرآن الكريم فقد كانت تحظى بأهمية خاصة، وكان بعضنا يذهب إلى منزل المعلم ليتلقى دروساً إضافية في القرآن الكريم.

ورغم تراكم الواجبات المنزلية للدراسة، فقد كنا نوجد الوقت لممارسة الرياضة. وكنا جميعاً نلعب الكريكيت أو كرة القدم وأحياناً نمارس السباحة. أما أنا فقد كنت محظوظاً بحصولي على فرصة ممارسة رياضة ركوب الخيل على نحوٍ دائمٍ، كما أنني كنت ألعب التنس بكثرة.

كان معلمنا، الدكتور "هوليجسواث"، رجلاً ذا شخصيةٍ فذةٍ. لقد كان يهتم بكافـة تلاميذه، وهو الرجل التربوي الآخر الذي لم يكن يقبل بالهراء. وكان يولي كل طالب اهتماماً خاصاً، حتى إنه كان يحتفظ بسجل لكل فردٍ على حدة. فإذا كان الدكتور "هوليجسواث" غير راضٍ عن أداء أيٍّ من تلاميذه أو سلوكه، فإنه سيقوم برصد خلفيته وحياته الأسرية، ومن ثم يقوم بالتدخل الإيجابي إذا رأى ذلك لازماً. وقد عرض عليه أخيراً منصبٌ رفيعٌ في وزارة التربية، إلا أنه رفض العرض، لأنه كان يفضل التدريس، مؤكداً بأن الطلاب هم أساس اهتمامه بحق.

كثير من الشباب الذين تلقوا التعليم تحت إشراف الدكتور "هوليجسواث"، أصبحوا ناجحين، وقد واصلوا دراستهم في الخارج وتخرجوا في الجامعات. وجميعهم يتذكر الدكتور "هوليجسواث" بامتنان وتقدير، نظراً لتدريسه المميز ونصائحه البناءة. وإنه لمن الإنصاف القول بأن الدكتور "هوليجسواث" كان له كبير الأثر في التنمية في زنجبار، من خلال أجيال الشباب الذين علمهم، والذين صار بعضهم لاحقاً من ذوي النفوذ.

وعندما حان الوقت لاستقلال زنجبار، كان الرجل الطيب قد تقاعد من الخدمة، وعاد للعيش في بلده إنجلترا. وكان أغلب الوزراء في الحكومة الجديدة من الطلاب السابقين للدكتور "هوليجسواث". وقد أرسلوا له دعوةً وتذكرة سفرٍ لحضور حفل الاستقلال، إلا أنه اعتذر عن الحضور، فقد كان حينها مسناً، لا يقوى على مشقة السفر. وقد كتبت الصحافة البريطانية كثيراً عنه وما يتحلى به من ثقافة وصفات نبيلة.

بعد ذلك بسنواتٍ، حينما كنت في لندن، هاتفت الدكتور "هوليجسواث"، طالباً تحديد موعد للذهاب لزيارته، فدعاني لتناول الشاي في ناديه، فلبيت دعوته بسعادةٍ غامرة. ورغم أننا لم نلتقِ منذ زمن بعيد، وكنا في غير بيئتنا الأصلية، إلا أننا انسجمنا معاً بذات الطريقة القديمة، مع مخالفتي له في الرأي أحياناً. ومن الواضح أن معلمي القديم تذكر بأنني جدلي نوعاً ما، فقد أبلغني بأنه يعتقد بأنني لم أتغير كثيراً، فقلت له بأنه هو أيضاً لم يتغير كثيراً. والحقيقة أنني لم أكن واثقاً في ما إذا كان قد أحب هذا التعليق أم لا.

وبطبيعة الحال، فإنه ليس المعلمون والشخصيات الإدارية في المدارس وحدهم من أثروا في شخصيتي في صغري، فقد كان للعائلة دائماً تأثيرها القوي في بناء الشخصية والوعي، وذلك ينطبق على أسرتي تماماً. لقد كانوا جزءاً من قبيلة البوسعيد، التي أصبحت السلالة التي حكمت عمان وزنجبار معاً، وكان من حسن حظي أنني نشأت بين شخصيات العصر في تلك المرحلة.

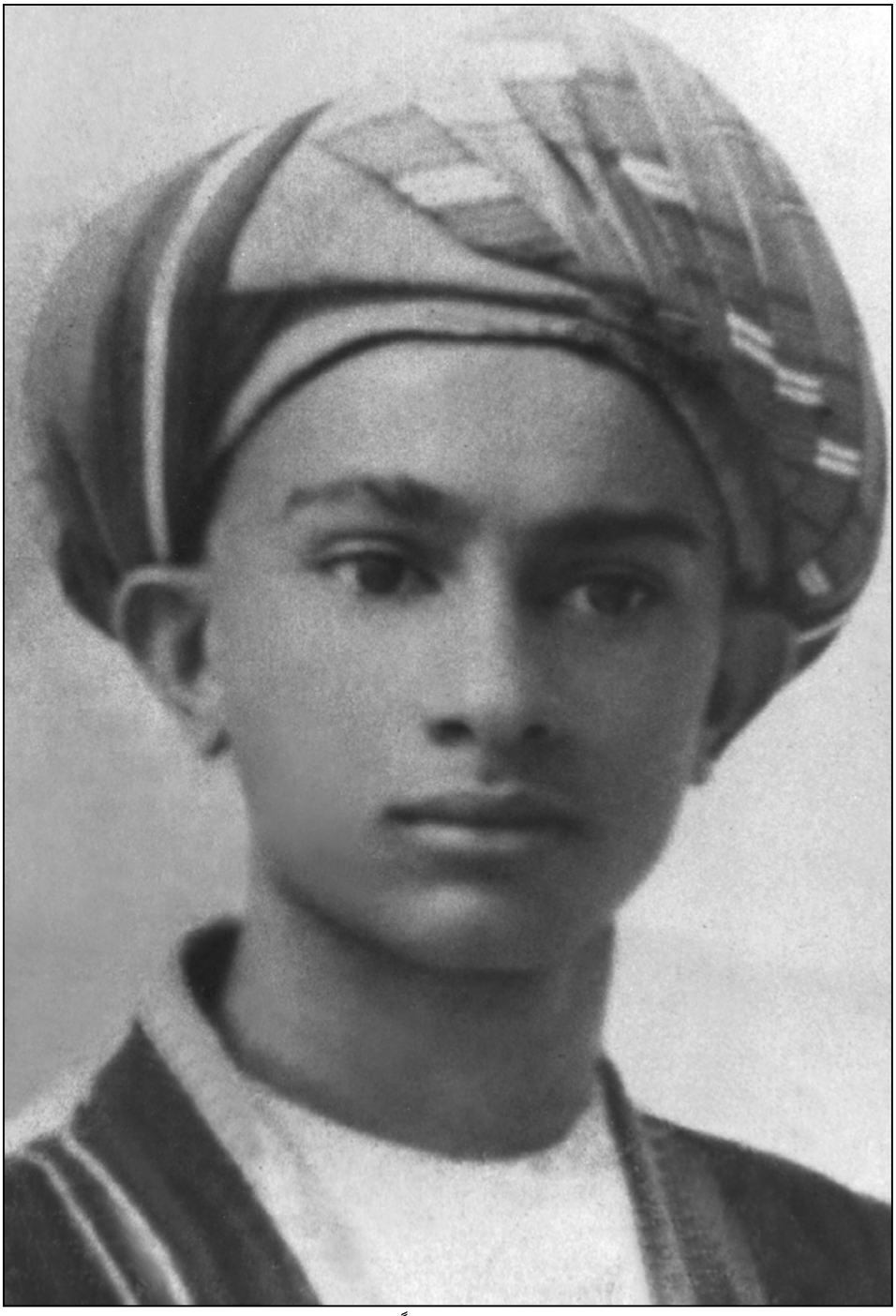

سعود بن أحمد البوسعيدي شاباً، في زنجبار، 1930م

الفصل السابع

الملكية في كل مكان

من بين الذكريات الكثيرة الرائعة، كانت تلك الأوقات التي قضيتها مع السيدة فاطمة. تلك السيدة التي كانت في غاية الطيب، والتي كانت تولي عنايةً كبيرةً ليس بالناس من حولها فقط، وإنما بالمخلوقات الأخرى أيضاً. وأتذكر أنها كانت تضع أواني المياه والبذور في الحديقة لتغذية أصدقائها الصغار المجنحة، فيما كانت الطيور من كافة الألوان تحط مرفرفةً بجناحيها، وبلطف ترتشف الماء وتلتقط الحبوب قبل أن تغيب بين الأشجار، أو تمضي محلقةً في البعيد، بينما كنت أحدق فيها وهي تتضاءل على نحوٍ سحريٍّ لتصبح بقعةً صغيرةً في زرقة السماء.

لقد كنت محظوظاً بأن هذه السيدة الطيبة قد أحبتني بشدةٍ، وكانت تنظر إلي كأحد أبنائها. وكثيراً ما كان يتم اصطحابي إلى منزلها، حتى بدت لي وكأنها أحد أفراد العائلة، إذ كانت تحنو علي بشدةٍ، إلى درجة أنني وأنا أتذكرها الآن أشعر بوهج غامرٍ من الطمأنينة والسعادة.

ومن بين الزوار الكثر الذين كانوا يرتادون ذلك المنزل الفخم والجذاب أيضاً، الذي كانت تتقاسمه السيدة فاطمة مع أختها السيدة علياء، كان جدي السيد حمد، الصديق المقرب لأخيهما السيد خالد. لقد كان جدي يأتي لزيارة السيدتين الملكيتين مرةً في العام، خلال مناسبة العيد. وكانت هذه المناسبات عزيزةً على نفسي، وتعني لي كثيراً جداً، لأنها كانت تربط عائلتينا معاً على نحو وثيق.

ويعود الفضل، بدرجةٍ كبيرةٍ، للسيدة فاطمة في التقائي بأهم الشخصيات في مملكتنا البعيدة في شرق أفريقيا، بمن في ذلك أفراد العائلة المالكة. وحينما اشتد أزري بما يكفي، كانت السيدة فاطمة تبعثني لاستقبال زوارها البارزين، الذين كان من بينهم السلطان خليفة بن حارب نفسه، والذي كان يتردد لزيارتها. وقد التقيت أيضاً بحرمه السيدة معتوقة، ونجلة أخيهما الراحل السلطان حمود. كما كانت السيدة شريفة بنت برغش بن سعيد، حفيدة السيد سعيد الكبير، إحدى الزائرات الملكيات.

سمو السيد السلطان خليفة بن حارب، عام 1941م

وحينما كان سمو السيد السلطان خليفة يأتي للزيارة، كثيراً ما كان يرافقه صديقه المقرب "السير كلودي هوليس"(*)، المقيم البريطاني لدى زنجبار في تلك الفترة. فقد كانت زنجبار محميةً بريطانيةً منذ عام 1890م، وكان المقيم البريطاني، الذي كان يضطلع دوراً كبيراً في سياسة الدولة، يتولى مهام مزدوجة. لقد كانت مهمته الرئيسة تتمثل في تلقي التوجيهات من بريطانيا، وموافاة رؤسائه البريطانيين الكبار بالمشورات السليمة حول شؤون الدولة. وكان في الوقت نفسه يتولى مهام رئيس الوزراء لسلطان زنجبار.

كانت السيدتان فاطمة وليلي تعتبران "السير كلود هوليس"، الذي كان شخصاً وقوراً، فضلاً عن كونه شخصاً جذاباً وساحراً من الطراز الأصيل، صديقاً قريباً. وقد كان هذا الشعور متبادلاً، فقد عبَّر "السير كلود هوليس" عن مدى سعادته بزيارة السيدتين الملكيتين المسنتين. وقد كانت أجواء المنزل تبدو في مثل هذه المناسبات مهيبةً واحتفالية.

كانت السيدتان ترتديان نوعاً من البراقع الفاخرة، المزخرفة بخيوط الذهب واللؤلؤ. وقد كانتا بلا شك تثيران الدهشة بعينيهما الواسعتين اللتين تبرزان من خلال البرقع المرصع بالجواهر، فيما كانت أكتافهما مغطاةً بشالٍ من الحرير المزين بالذهب المطرز والجوارب الرقيقة. وأعتقد أن هذه الشالات الحريرية قد ورثتاها عن جدهما السيد سعيد الكبير. وبعد أن تقاعد "السير كلود هوليس" من عمله، وعاد إلى منزله بإنجلترا، كان يبعث إلينا سنوياً بكعكة فواكه لذيذةٍ، وبطاقة معايدة بمناسبة أعياد الميلاد.

أما إحدى الزائرات البارزات التي زارتنا فكانت الآنسة "أولجا سعيد ريوتي"، التي جاءت من ألمانيا لرؤية أقاربها في زنجبار، وهي حفيدة السيدة سالمة، مؤلفة كتاب "مذكرات أميرة عربية في زنجبار". والسيدة سالمة هي

(*) السير ألفرد كلود هوليس، تولى منصب المقيم البريطاني في زنجبار من 1923 إلى 1929م. وقد تم تسمية شارع هوليس في ستون تاون باسْمه.

إحدى بنات السيد سعيد الكبير. وقد كان اللقاء بهذه الفتاة الشابة، الحفيدة الأوروبية للسلطان الشهير، أمراً مذهلاً.

إلى جانب ذلك كان هناك سمو السيد عبدالله بن خليفة، ابن السلطان، وهو شخصٌ محببٌ جداً لدى السيدتين فاطمة وعلياء. وحين قدمتني السيدة فاطمة للسيد عبدالله طلبتْ منه أن يعاملني كأخيه الأصغر، فكان السيد عبدالله كثيراً ما يدعوني للخروج معه.

لقد كان السيد عبدالله محباً للرياضة، الأمر الذي راق لي جداً، فأسسنا معاً فريقاً للعب الكرة، وأطلقنا عليه اسم "فريق القصر لكرة القدم"، وقد كان لنا ملعبنا الخاص بنا في قرية "كدونجو تشيكوندو". وقد لعبنا مرةً ضد فريقٍ خارجيٍّ جاء عازماً على الفوز. وفي اللحظات الأخيرة للمباراة، المليئة بالحماس والتوتر، وبينما كانت النتيجة تعادلاً بين الفريقين، والجماهير تحبس أنفاسها، حدث أن أقبلت نحوي كرةٌ مسرعةٌ قادمةً من زاويةٍ مجهولةٍ، في الوقت الذي كنت فيه بالقرب من المرمى.

لقد كان يتعين علي جمع قواي، والتصرف بسرعة، وتوجيه ضربة رأسية للكرة، باتجاه شبكة المرمى، فكان الحظ حليفي، وسجلت هدف الفوز، فانطلقت الهتافات والتبريكات الحارة لي، حيث تم إعلاني بطل المباراة. وبطبيعة الحال شعرت بالفخر، وخصوصاً أنني كنت أصغر لاعبٍ في المباراة.

كنا محظوظين بأنه كان لدينا ملعب للبولو، وكثيرًا ما كنا نذهب أنا والسيد عبدالله لممارسة ركوب الخيل ولعب البولو. وفي المرة الأولى التي ركبت فيها الخيل، لم ألبث سوى لحظاتٍ قليلةٍ على السرج، حتى هويت أرضاً، أتضور ألماً من رضةٍ مفاجئة، إلا أنه كان من حسن حظي أنني وقعت على الأعشاب، مما جنبني الإصابات. ولكن السقوط زاد من إصراري على مواصلة هذه الرياضة، وبعد فترةٍ وجيزةٍ تكيفت مع رياضة البولو، ونمت لدي رغبةٌ شديدةٌ في عالم الفروسية.

في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين حدثت في تاريخنا الأسري مناسبةٌ هامةٌ، حيث تزوج السلطان السيد خليفة بن حارب بن ثويني من شقيقتي السيدة نونو. لقد كانت شقيقتي سيدة اجتماعية، ودودة، حيوية، ومحبة للتواصل الاجتماعي والتعارف مع الناس. كما كانت سيدةً كيّسةً تتمتع ببراعةٍ فائقةٍ في تنظيم المناسبات الاجتماعية، وتعي تماماً كيف تتعامل مع الضيوف الكثر الذين كانوا يجيئون لأداء التحية للسلطان. وكان السلطان، الذي عرف جيداً قيمة الدبلوماسية الشخصية، غالباً ما يصطحب بعض الضيوف إلى الطابق العلوي للتعرف على شقيقتي. ونظراً لأنهما كانا زوجين في منتهى الإخلاص بعضهما لبعض، ويعشقان ممارسة الأشياء معاً، فقد كان السلطان أحياناً يصطحب السيدة نونو في رحلات الإبحار على متن السفينة "سلطانة".

كانت شقيقتي تتولى تنظيم الحفلات بنفسها، دون أن تترك الأمور للسكرتير الشخصي، حتى في مناسبات الأعياد الكبيرة. وبعد الانتهاء من صلاة العيد في المسجد، يقوم السلطان بدعوة الجميع إلى حفل استقبالٍ في القصر، وكان عدد الضيوف يبلغ المئات، الأمر الذي يجعل مهمة القيام بضيافة هذا العدد الكبير من الضيوف مهمةً شاقةً، للتأكد من أن كل شيء يسير بدقةٍ وانتظام. لقد كانت تعمل دائماً وفق جدولٍ زمنيٍّ صارمٍ، كنظامٍ دقيقٍ لا بد من اتباعه، حيث كان هناك دائماً ضيوفٌ من الشخصيات الهامة الذين كانت لديهم مواعيد لمقابلة السلطان في مكتبه، عقب انتهاء حفل الاستقبال.

كانت حفلات الاستقبال تجري وفق بروتكولٍ محددٍ، إذ إنه فور وصول رؤساء الجماعات والضيوف من مختلف المناطق، إلى القصر، يقوم موظفو الاستقبال بمرافقتهم إلى القاعة الكبرى. وحين يأخذ الجميع أماكنهم في الجلوس يدخل السلطان عليهم في القاعة، حيث يهب الجميع وقوفاً، احتراماً لسموه. وحين يجلس الجميع، يبدأ ثلاثةٌ من الندلاء الشباب، مرتدين دشاديش ناصعة البياض، وصدريات سوداء مزخرفة، بتقديم الأكل للحضور. لقد كانوا يمرون بكل تلك الصفوف العديدة بدقةٍ متناهيةٍ، حاملين الصواني الكبيرة

المحملة بأصناف الأطعمة العربية الشهية كالحلوى والبقلاوة.

وبعد تقديم القهوة العمانية، يقوم الندلاء بتمرير زجاجاتٍ من العطر على الضيوف للتطيب، حيث يتم رش ماء الورد العطري على كل من يومئ برأسه راغباً في ذلك. وكان الجو في الوقت ذاته يعبق برائحة البخور الزكية. وتستمر هذه المظاهر من تقاليد الضيافة العمانية الأصيلة قرابة نصف ساعةٍ، يقوم السلطان بعدها مغادراً مجلسه، ثم يقف عند عتبة السلم الكبير، حيث يقوم بمصافحة كل مغادرٍ على حدة، بلباقةٍ متناهية.

لقد كان واضحاً بأن الناس في زنجبار قد أحبوا السلطان خليفة، وكانوا يعدونه رجلاً عظيماً. ففي الوقت الذي كان يحافظ فيه على هيبته الملكية، كان السلطان ودوداً وطيباً بشكلٍ منقطع النظير، ويتمتع بحس فكاهي عالٍ. كما كان السلطان خليفة ماهراً في إضفاء السكينة على من حوله، ودائماً ما يخصص بعض الوقت لرعيته، فيقوم بإسداء كلمةٍ طيبةٍ، أو عبارةٍ مازحةٍ، لكل من جاء لتقديم التحية له، حتى لو اقتضى ذلك الوقوف الساعات الطوال. لقد كان السلطان خليفة يعرف كيف يتواصل مع كافة شرائح المجتمع، فقد كان بليغاً وغير متكلف في كلامه في آن واحد، سواء تحدث مع الشخصيات الملكية، أو السياسية أو الخدم.

إحدى الهبات الربانية التي كان يتمتع بها السلطان خليفة كانت ذاكرته القوية. وأتذكر الآن قصةً حدثت في إحدى حفلات الاستقبال في إنجلترا، حينما طلب السلطان مقابلة أحد اللوردات بعينه، وكان قد قابله مرةً واحدةً، في لندن قبل عدة سنوات. وقد كان اللورد المقصود حاضراً في الحفل، فجاء لمقابلة السلطان. وكان كلا الرجلين محباً للرياضة، فتحدثا معاً حديثاً مطولاً عن هوايتهما المشتركة، تماماً كما كانا في سابق عهدهما. وقد تذكر السلطان محادثتهما السابقة بكل تفاصيلها الدقيقة، مما أثار دهشة اللورد والحضور.

إن الملكيات في أنحاء العالم كافة لديها ميل إلى امتلاك الجياد، وينحو

كثيرٌ منها إلى الإعجاب بسباقات الفروسية. ومما لا شك فيه أن عشق السلطان خليفة للخيل كان نابعاً من تراثه العماني، الذي يعتبر الخيل رمزاً للشجاعة والوفاء. وقد كانت الخيول العربية الأصيلة، التي تعود سلالاتها إلى آلاف السنين، تربى من البدو لتتكيف مع ظروف الصحراء. وكانت أفضلية الاختيار تقع على الخيول السريعة الفهم والمناسبة للاصطحاب، وكان لا بد من أن تكون قويةً وسريعةً في الهجوم وخوض المعارك. كما تربى الخيول العربية للزينة، وهي تتميز بحاملة ذيلها الطويلة، وعنقها المقوس، ومعالمها الضامرة، ورأسها الإسفيني الشكل، ووجهها ذي الملامح الحادة، وجبينها العريض، وعينيها الواسعتين.

ووفقا للمثيولوجيا البدوية، فإن الله قد خلق الخيل العربية من الرياح الأربع، لتكون سريعةً في السباق كما في الطيران. وكان يعتقد بأن الخيل العربية، التي تعد إحدى مفاخر الحياة، تطير بلا أجنحةٍ وتجلب الرزق والفأل الحسن. وقد كان الأمر أشبه بالبركة حينما وصل إلى زنجبار حصانان عربيان، فحلٌ وفرسٌ، على متن سفينة داو قادمةٍ من عمان مع الرياح الموسمية. إنهما أجمل فرسين رأيتهما في حياتي، وكانا هديةً للسلطان خليفة. لقد أطلق على الفحل الوسيم ذي اللون الكستنائي الغامق "دهماني"، فيما أطلق على الفرس الجميلة البنية المائلة للحمرة "كهيلي". وقد كان الفرسان العربيان، الوحيدين من نوعهما في زنجبار، يثيران إعجاب كل من شاهدهما.

كانت كهيلي تتمتع بملامح رائعة، إذ كان رأسها يتميز بخط أبيض، وفكها ناعم الشكل. أما دهماني، فقد كان بحقٍّ أرستقراطياً بأربع قوائم. لقد كان مخلوقاً فاتناً معتزاً بذاته، وكان دائماً يرفع رأسه عالياً كأنما كان يستنشق الهواء النقي، وذيله المنتصب كان يعكس مدى يقظته. لقد كان حصاناً قوياً، ذا عضلات متينة مفتولة بارزة، تغطي كل أنحاء جسده الحريري.

لقد كان هذا الحصان المفعم بالحيوية ميالاً للعدو بسرعةٍ عالية، ونزاعاً

لإساءة السلوك أحياناً. وكان استخدام الطقم الذي يحكم الحصان العادي غير مجدٍ مع دهماني، فهو حينما يبدأ في العدو، يصبح قوةً جبارةً، ولا يخفف من سرعته، مهما بذل الراكب جهداً في شد اللجام. وقد استمر الوضع على ما هو عليه حتى قام أحد أصدقائنا، ويدعى الشيخ عبدالله بن حميد الحارثي، بعمل طقمٍ جديدٍ للسيطرة على ذلك الحصان العنيد، ثم أرغم دهماني على التخلي عن غطرسته.

حينما كنت مرةً أمارس ركوب الخيل في الصباح الباكر بمعية الأمير عبدالله وآخرين، غضب دهماني غضباً شديداً، فقد كان يريد العدو بجوار كهيلي، بينما كان حصاني يسد الطريق أمامه. وفجأةً حمل دهماني علي وعلى حصاني، حيث انتصب إلى الوراء متجهاً نحوي أنا وحصاني، وبقيت حينها متشبثاً بنجاتي، حيث فر حصاني هارباً بأقصى سرعته، مصاباً برعب شديد من دهماني.

وانتهى الأمر بسقوطي من على ظهر حصاني، مصاباً بجرح في أحد جانبي ظهري، وقد كان من حسن الحظ أنني كنت أرتدي معطفاً ثقيلاً يقيني برودة الطقس القارس في تلك الفترة من السنة. وحين نظرت إلى الإصابة في ظهري تبين لي أن المعطف ساهم في حمايتي من إصابة أكثر خطورة. ولم يكن لدي حينها أي خيار آخر سوى العودة إلى البيت مشياً على القدمين، بثياب ممزقة بشدة. وقد كانت هناك سيدةٌ إفريقيةٌ تشاهدنا نمر بجوارها في طريق الذهاب نستبق بخيلاءٍ على ظهور خيولنا، رأتني أعود راجلاً في وضعٍ يدعو للشفقة.

وبينما كنا عائدين مرة إلى الإسطبل من جولة عدوٍ على ظهور الجياد إذ بدهماني يرفض التوقف، فما كان من السيد عبدالله إلاّ أن رمى نفسه من على ظهر الجواد، خشية أن يجري الحصان إلى الشارع المسفلت حيث يمكن أن يتعرض للإصابة من العربات أو يتسبب في وقوع حوادث سير. وطبقاً لما يقال إن الحصان الجيد يعرف صاحبه ويحبه، ولا يتخلى عنه، مهما

حدث، فقد عاد دهماني إلى راكبـه فوراً، ولكن بشيءٍ من الأنفة. لقد كان السيد عبدالله سريعاً وفطناً.

كان السيد خليفة في شبابه يحب ركوب الخيل دائماً، وكان يلعب البولو كثيراً، كما كان يبدي اهتماماً خاصاً بكلٍ حصان من خيوله. وكثيراً ما كان يأمر بإحضار الحصانين العربيين إلى القصر، لكي يتسنى له ملاطفتهما وإطعامهما السكر والجزر. وهذه الطريقة تجعل الحيوان ومالكه صديقين حميمين.

كان ركوب الخيل إحدى وسائل التسلية المشتركة بين السيد خليفة والسيدة نونو. وقد كان رائعاً ومؤثراً مشاهدة الزوجين الملكيين يمارسان ركوب الخيل معاً، السلطان يعتلي ظهر الحصان، وشقيقتي على ظهر الفرس.

ولكن هذه الحياة المثالية سرعان ما تبدلت، حيث عاودت الحرب قرع طبولها مجدداً وانتشرت الحرب في أوروبا سريعاً مرة أخرى. لقد كان للحرب العالمية الثانية تأثيرٌ كبيرٌ على زنجبار، على الرغم من أن هذه الجزيرة كانت تبعد آلاف الأميال عن العاصفة. ولكن حينما أعيقت حركة الملاحة، وأصبح الطعام نادراً، بات من المستحيل الاحتفاظ بنادي الفروسية. ولما غدا واضحاً أن الخيول تعاني من سوء التغذية، تم بيعها جميعاً، إلى مزارعين كينيين، كانت لديهم الوسائل اللازمة للاعتناء بها، باستثناء دهماني وكهيلي.

بعد ذلك آلت ملكية دهماني وكهيلي إلى السيد جمشيد، نجل الأمير عبدالله، وحفيد السلطان خليفة. لقد ورث السيد جمشيد حب العائلة لركوب الخيل، وكان يجيدها بمهارة. كما كان الأمير سعيداً بإنقاذ هذين الحصانين الأصيلين، اللذين استعادا عافيتهما في ظل رعايته. وبعد نشوب الثورة بقي الحصانان في قصر كبويني، ولكنهما كانا يعانيان بعض الإهمال من النظام الجديد، ولا شك في أنهما كانا يفتقدان راكبيهما الملكيين.

وحينما جاءت لاحقاً أميرةٌ أردنيةٌ في زيارةٍ غير رسميةٍ إلى زنجبار، قام أحد المرشدين باصطحابها لرؤية الحصانين العربيين الشهيرين، وأعجبت بجمالهما، ولكنها شعرت بالأسى من جراء الظروف التي وجدتهما فيها. وقد صرحت الأميرة لاحقاً لجريدةٍ مصرية بأنها شعرت بالشفقة تجاه الحصانين الجميلين، حينما رأتهما حزينين مكتئبين، وقد انطوت سنوات مجدهما.

ثلاثة أجيال من الملكية (1950) من اليسار إلى اليمين
السيد محمد، السيد عبدالله بن خليفة، الورثة الشرعيون :
سمو السلطان خليفة، وحفيداه السيد جمشيد والسيد حارب

سمو أميرة بريطانيا العظمى مارجريت، تترجل من عربة السيد خليفة،
من نوع ديملر، أمام قلعة ستون تاون

سمو الأمير عبدالله بن خليفة البوسعيدي، بمعية سمو الأميرة مارجريت (أكتوبر 1956)

كان عشق السيد خليفة للرياضة معروفاً جيداً في البلاد. وكانت كرة القدم تحظى بشعبيةٍ واسعةٍ في زمنه، فيما كانت المسابقات تقام في العديد من الدول، على نحو دوري. وحين جاء موعد استضافة زنجبار لنهائيات شرق آسيا، عمت الأجواء فرحةٌ كبيرةٌ، واحتشدت الجموع لحضور المباريات، وتوافدت الشخصيات الملكية والهامة من المناطق الرئيسة. وكان أبرز الشخصيات المدعوة من قبل السيد خليفة، الملك كباكة موتيسا الثاني، ملك أوغندا، ابن عم صديقي الأمير بدرو. وقد جاء الملك إلى زنجبار على متن طائرةٍ خاصةٍ، برفقة وفد ملكيٍّ كبير.

كان السلطان يدعو الملك كباكة لتناول العشاء معه كل مساء. ونظراً لكوني رئيس الحاشية السلطانية آنذاك، فقد كنت مسؤولاً عن راحة الملك، والتأكد بأن كل أموره تسير على وفق ما ينبغي. وكنت أرافق الملك إلى القصر يومياً لحضور عشاءٍ سلطانيٍّ فاخر، ثم بعد ذلك أرافقه في العودة إلى نزله. وقد حظيت لاحقاً بتقديرٍ كبيرٍ من الملك حين زرت صديقي الأمير بدرو في أوغندا، حيث دعاني الملك إلى قصره.

أما أكثر الزيارات الملكية إثارةً إلى زنجبار في زمني، فكانت زيارة سمو الأميرة الملكية مارجريت، من بريطانيا العظمى، خلال جولتها في شرق أفريقيا، عام 1956م، وذلك بعد عودتي من أكسفورد ببعض الوقت. وقد أُبلغت الإدارة المحلية، حيث كنت أعمل في منصب مرموق، بضرورة ضمان زيارة ناجحة للأميرة مارجريت، وبالتالي فقد كنت معنياً بالأمر على نحو مباشر. لقد حضرت الوليمة التي أقيمت على شرفها في القصر، وقد طُلِب مني الجلوس معها في الشرفة أثناء مشاهدة العرض الترفيهي الزنجباري الذي أقيم خصيصاً لها.

كان هناك ثمانون راقصاً بألوانٍ مختلفةٍ، يرتدون أغطية رؤوسٍ موشاة بالريش، يدخلون باحة القصر من بابٍ ويخرجون من باب آخر، يرقصون في

فناء القصر، لإمتاع الأميرة. وقد كانت مسؤوليتي تتمثل في شرح الرقصات المختلفة لسموها، أثناء مرور الراقصين. ثم انتقل الراقصون إلى إيقاع الطبول، مرتدين التنانير الطويلة ذات الخطوط الفاتحة، مزينين بالخلاخيل الوفيرة، والحلي الأفريقية الملونة. لقد كان كل شيء مبرمجاً، وكان قد تم توجيه الأشخاص المعنيين، بأن لا تتجاوز كل لوحة استعراضية أكثر من عشر دقائق.

لقد افتتنت الأميرة بالمشاهد الاستعراضية البديعة، لاسيما رقصة الـ"الكونجوبيا"، والتي تعرف برقصة المظلة، حيث يقوم الراقصون الرشيقون بتدوير مظلاتهم مع نغمات المزمار الأفريقي الساحرة، وإيقاعات الطبول. وحين تتوقف الطبول، كان الراقصون يقومون برفع مظلاتهم على هيئة هرم، ثم يحدقون بأبصارهم بسمو الأميرة مارجريت، رافعين رؤوسهم للأعلى. لقد كانت الأميرة معجبةً بذلك جداً، حتى إنها طلبت إعادة الفقرة، ولكن لسوء الحظ لم يكن ذلك ممكناً، نظراً لأنه لا بد من استكمال العرض. ولا بد من القول إن العرض بأكمله كان مبهراً بحق، بل إنه كان مهيباً أيضاً.

السيدة نونو تمشي بجوار سمو الأميرة مارجريت، 15 أكتوبر 1956م

سمو السيد برغش، سلطان زنجبار (1888م)

وقد تم لاحقاً نصب قوسٍ أسمنتيٍّ مزدان بالزخرفات العربية، على شرف زيارة سمو الأميرة مارجريت، وذلك بالقرب من الساحل والحديقة البديعة التي أنشئت تخليداً لذكرى اليوبيل الفضي لتولي السلطان خليفة مقاليد الحكم. وحينما زارت الأميرة قوسها والحديقة عام 1956م، قامت بغرس شجرةٍ ما زالت قائمةً إلى اليوم - وارفةً شامخةً مليئةً بالطيور.

في زنجبار كانت حياة الأسرة الملكية وعاداتها معلومة جداً لدى الرأي العام، تماماً كما هو الحال اليوم، تحت عين الصحافة المعاصرة. وقد كان هناك العديد من القصص المثيرة حول شخصيات زنجباريةٍ ملكيةٍ في زمني وقبل ذلك أيضاً. لقد كان الأمر يبدو لي ممتعاً جداً، بأن تكون القصص القديمة مستساغةً مثلها مثل القصص الجديدة. وكانت الشخصية الملكية الأقدم والأكثر استذكاراً، هي الحاكم العماني الأول لزنجبار، السيد سعيد بن سلطان، المعروف بالسيد سعيد الكبير، الذي ولد عام 1791 تقريباً، وحكـم منذ عام 1804م حتى مات عام 1856م. ومنذ توليه الحكم بدأ سلطان عمان (التي كانت تعرف بـ "مسقط وعمان") في تأسيس إمبراطوريةٍ تجاريةٍ تقوم على التجارة في حوض المحيط الهندي. وفي عام 1840 قام بإنشاء عاصمةٍ ثانيةٍ له في زنجبار، لاستثمار هيمنته التجارية المزدهرة حينذاك في شرق أفريقيا.

ووفقاً للتقاليد السائدة لدى ملوك العرب قديماً، فقد كان لدى السيد سعيد أكثر من زوجةٍ، بالإضافة إلى العديد من المحظيات، اللاتي أنجبن جميعاً أكثر من ستةٍ وثلاثين طفلاً. ومن بين الشخصيات البارزة من نسل السلطان سعيد هم كلٌ من: السيد ماجد، الذي تولى حكم زنجبار عام 1856م، على إثر وفاة والده وتقسيم السلطنة، والسيد ثويني الذي حكم عمان عام 1856م أيضاً، والسيد برغش الذي خلف أخاه غير الشقيق السيد ماجد على عرش زنجبار عام 1870، والسيدة سالمة (1844- 1924م) التي اشتهرت بكتابها الرائع "مذكرات أميرة عربية من زنجبار".

ثمة قصةٌ كان جدي يرويها عن السيد ماجد حينما أصيب بمرضٍ شديدٍ عندما كان مراهقاً يقيم برفقة العائلة في القصر، في ستون تاون. وحين بلغت الأخبار المقلقة إلى والده في بيت متوني - قصر بعيد في الريف الشمالي يقع على الساحل - ذهب السلطان مباشرةً نحو الشاطئ، ودفع بقارب تجديفٍ صغيرٍ إلى مياه المحيط، وأخذ يجدف بمفرده طوال المسافة إلى مدينة زنجبار،

التي تبعد عدة كيلو مترات. وحينما تماثل السيد ماجد للشفاء عاد السلطان مجدفاً إلى متوني. فما كان من السيدة سالمة، الفتاة الشابة التي كانت توقر والدهـــا، وكانـــت قلقةً عليه بسبب مشقة الرحلة، إلا أن أبلغته بوضوح بأنه كان ينبغـــي عليه أن لا يقوم بمخاطرة كهذه، لا سيما أنه كان بمفرده، ولم يعد شاباً كما كان.

كان السيد سعيد مولعاً جداً بالسيد برغش (1837-1888م)، الفتى الحيوي الفطن، الذي وجد السيد سعيد فيه نفسه حينما كان شاباً يافعاً. وقد أخبرني جدي قصصاً لا تنسى عن السيد برغش بن سعيد، ثالث حاكم عماني لزنجبار، الذي كان يقتفي سيرة أبيه السيد سعيد، وتولى زمام الأمور بعد أخيه السيد ماجد. إنه والد السيد برغش الذي شيد العاصمة، مدينة زنجبار، كمركز قوةٍ سلطانيةٍ مهيبةٍ، بمعمارها الساحر وذوقها الرفيع. وقد واصل السيد برغش على نفس المسار، فأدخل تحسيناتٍ جديدةٍ على البنية التحتية، وشيد العديد من المعالم الباهرة مثل بيت العجائب.

يعرف عن السيد برغش بأنه كان حاكماً قويًّا، ولكنه كان رجلاً اندفاعياً ويفقد أعصابه في أحيانٍ كثيرة. وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بالسلطة المطلقة، إلا أن السيد برغش كان يتجاوز الخطوط أحياناً. ومن إحدى الحوادث على ذلك مثلاً، حينما أوشك على التدخل في سير محاكمةٍ منعقدة. إذ إن قصر السلطان كان في زمن السيد برغش مكوناً من عدة مبانٍ ترتبط في ما بينها بممرات علوية. وكان يقف على مدخل كل ممر حارس يتولى حمايته. وبينما كان يتجول في القصر في أحد الأيام، وجد نفسه في شرفة مطلة على المحاكم، فوقف يصغي لمداولات المحاكمة. وفجأةً وجه السلطان نداءً إلى القاضي، بنبرة مدويةٍ آمرة.

رفع القاضي حاجبيه استغراباً ونظر إلى السيد برغش الذي وجه إليه حينها سؤالاً حول القضية. لقد تملك القاضي غيظٌ شديدٌ، ولكنه أبدى تماسكاً كبيراً،

وأجاب عن السؤال الموجه إليه من السلطان، ثم طلب من السيد برغش بهدوءٍ أن يأتي ويحل محله في المحكمة. لقد كان ذلك رداً جريئاً، ومن الممكن أن يعد رداً طائشاً، ومسيئاً أيضاً، وربما أدى إلى فصل القاضي من وظيفته أو حتى أسوأ من ذلك. ولكن السيد برغش غطى وجهه بكلتا يديه، مدركاً بأن التدخل في سير المحاكمة يعد خرقاً خطيراً للبروتوكول.

كما كان السيد برغش معروفاً بشغفه الشديد بالطعام، وكانت كل وجبة له طقساً باذخاً، تضم أصنافاً مذهلة من الأطباق. وقد كان يحب الأنشطة الثقافية، ويهوى التسلية أثناء تناول الطعام، فجلب لهذا الغرض فرقة موسيقية تركية. وكان العازفون يؤدون المعزوفات العربية والشرقية الرائعة على آلات الطبل والعود والقانون، أثناء وجبة العشاء. وقد كان العازفون يقيمون في القصر، ويعطون الدروس للموهوبين من الموسيقيين المحليين، وهكذا دخلت الموسيقى العربية إلى زنجبار.

خلال فترة حكمه (1870-1888م) قام السيد برغش بتشجيع المزارعين على زراعة كمياتٍ كبيرةٍ من شجرة القرنفل، وأمر بإنشاء مساحات زراعيةٍ جديدة لرفع دخل الجزيرة من الزراعة، نظراً لأن تجارة القرنفل كانت مربحةً جداً. وكان البريطانيون في ذلك الوقت يمارسون ضغوطاتٍ شديدةً على السلطان، لإقرار وتطبيق قوانين لإلغاء الرق. وبما أن زراعة القرنفل كانت تقوم على العمالة الكبيرة، فقد كان المزارعون يطالبون بالمزيد من العبيد لتلبية الطلب على رفع الإنتاج، بغية تحقيق التنمية الاقتصادية المستدامة في البلاد.

وقد خلق ذلك معضلاتٍ شديدةً أمام السيد برغش، هل يلبي المطالب المتزايدة لشعبه، أم يخضع لضغوطات البريطانيين المطالبة بإبطال الرق؟ وقد قال السيد برغش بوضوح: "إنني أرى ثمة رمحين، أحدهما عن يساري، والآخر عن يميني. فأيهما أختار لطعني؟"

إن السيد برغش هو الذي أطلق على "دار السلام" هذا الاسم، إذ إنه حينما زار المدينة أدهشه جمال المدخل المقابل للميناء وسكينته. وقد كان جدي لأمي يمتلك قطعة أرضٍ على مدخل الميناء، فقام ببناء منزلٍ كبيرٍ هناك. ومن المحتمل أن يكون السيد برغش قد أقام في منزل جدي حينما زار دار السلام. وعندما كنت أعمل نائباً للوالي بدار السلام لاحظت بأن المنزل المهيب ما يزال هناك، إلا أنه لم يعد في ملكيتنا.

وحينما تقدم السيد برغش في السن أصيب بالمرض والإعياء. وقد شاهد مرةً، بينما كان يجلس على شرفة القصر، عاملاً يحمل على ظهره كيساً كبيراً من الرز، وهو يجري طوال الطريق تقريباً، رغم الوزن الكبير على كاهله، فأعجب السيد برغش بشدةٍ بقوة الرجل.

وبدافع الإعجاب طلب من الحراس استدعاء العامل إلى القصر، فوقف العامل المسكين يرتعد خوفاً أمام سلطان زنجبار المهيب في قصره الباذخ. حدق السلطان بنظرته الصارمة في وجه العامل، ولم ينبس سموه بكلمةٍ واحدةٍ لعدة دقائق. إن الصمت قد يكون قاتلا حينما تمر الدقائق كالساعات، بينما كان العامل يتمزق قلقاً حول ما عساه يكون قد جنى من الجرم، وأي عقوبةٍ تنتظره.

بعد ذلك تحدث السيد برغش وكأنما يعلن نتيجة مداولاتٍ رسميةٍ، قائلاً: "تمنيت لو كانت لدي قوتك. ولو كان بمقدوري الحصول على قوتك لوهبتك نصف ما أملك". ثم أمر السلطان مساعده بمنح العامل المرتعد مبلغاً كبيراً من المال، ثم أطلقه إلى ليذهب في حال سبيله.

وقد تكبد السيد برغش مشقة السفر من زنجبار إلى عمان، طلباً للشفاء، بناء على نصيحة فريقه الطبي في زنجبار، حيث استحم في مياه العيون الدافئة في بوشر، التي كان يعتقد أن لها قوةً شفائية.

أما القصص الأكثر ذيوعاً الآن عن زنجبار القرن التاسع عشر، فهي قصص

الأخت غير الشقيقة للسيد برغش، وهي السيدة سالمة، نظراً لتوثيقها في كتابها المعروف الآن "مذكرات أميرة عربية من زنجبار"، الذي كتب عام 1886م. وإحدى أكثر القصص تأثيراً في الكتاب، هي قصة تلك الأميرة الصغيرة التي تنتظر عودة أبيها السيد سعيد من رحلته البحرية الأخيرة في الخارج.

انتظرت السيدة سالمة وبقية أفراد الأسرة المالكة في زنجبار، بفارغ الصبر، لمدة ثلاث سنوات. وحينما بلغت الأنباء أخيراً عن اقتراب عودة السيد سعيد، "أخذ السيد ماجد وحاشيته زورقين صغيرين، وأخذوا يصارعون الأمواج العاتية، التي كادت تغرقهم في أية لحظة"، وخرجوا للقاء أسطول السلطان، ولكنهم لم يعودوا في تلك الليلة. وقد قام الحراس بتطويق القصر على نحو لافت، ولم يسمح لأحد بالخروج. لقد شعرت السيدة سالمة والمحيطون بها بنذيرٍ ما، ولكنهم لم يتوقعوا النبأ السيئ الذي كان بانتظارهم.

وعندما حل الصباح، شوهد الأسطول راسياً في الميناء، فيما كانت جميع السفن ترفع العلم الأسود، الأمر الذي أثار الاستغراب. ولم تستوعب الأميرة سالمة، التي كانت حينها في الثانية عشرة من العمر، في البدء، أن والدها قد فارق الحياة على متن السفينة. ولكن الأميرة سالمة، الملكية حتى النخاع، لم تسهب في كتابها في الحديث عن آلامها وأحزانها، وإنما بدلاً من ذلك كانت تفكر في عظمة والدها وسيرته لدى الناس: "لقد أثبت الحداد الجماعي لدى وفاته، كم كان محبوباً بصدق لدى الجميع. لقد علقت الأعلام السوداء على كل بيت. وحتى أصغر الأكواخ كان قد علق قطعةً من خرقةٍ سوداء"(*).

وكان السيد برغش هو من أمر بتطويق قصر والده، بالإضافة إلى قصر ماجد، متطلعاً إلى اختطاف العرش بطريقةٍ سريعةٍ، عن طريق القوة، إلا أن

(*) المرجع نفسه، ص 77.

محاولة الانقلاب باءت بالفشل. ففي الصباح التالي أعلن ماجد، وهو أكبر الأخوين، نفسه سلطاناً.

كما ثار بعد ذلك نزاعٌ آخر على السلطة، يعتقد بأن للبريطانيين يدا فيه، حينما نشأت الخصومات بين أفراد الأسرة المالكة للسيطرة على الإمبراطورية التجارية الكبرى للسيد سعيد. ونتج عن ذلك أن عمان وزنجبار أصبحتا سلطنتين منفصلتين، حيث أُعلن السيد ثويني، الابن الثالث للسيد سعيد، سلطاناً على مسقط وعمان، بينما أُعلن ابنه السادس السيد ماجد سلطاناً على زنجبار.

بعد ذلك بثلاث سنواتٍ فقدت السيدة سالمة والدتها في وباء الكوليرا، ولكنها واصلت الحياة في القصر بكل بسالةٍ، حتى وقعت في حب "رودولف هينرتش ريوتي"، التاجر الألماني الشاب من هامبورج، الذي كان يقيم في زنجبار، بجوار منزل الأميرة سالمة، كممثلٍ لشركة تجارية.

ومن الطريف أن عاملة المنزل القديمة لدينا "زهرة"، التي يبدو أنها كانت المؤتمنة على أسرار السيدة سالمة، كانت الوحيدة فقط التي كانت على علم بأن الأميرة الشابة العاشقة تخطط للهروب مع الأجنبي الوسيم، الذي ملك قلبها. وعندما أقدمت الأميرة على هذه الخطوة غير المألوفة تغير مسار حياتها للأبد.

إن حكاية السيدة سالمة حكايةٌ مأساويةٌ، إلى جانب كونها قصة نبلٍ وشجاعة. فبعد سنواتٍ قليلةٍ من السعادة، قتل زوج السيدة سالمة في حادث ترام، وبقيت وحيدةً في بلدٍ أجنبي، مع أطفالها الثلاثة. لقد ضربت السيدة الملكية مثالاً رائعاً في الشجاعة، حتى إنها لم تذكر ولو لمرةٍ واحدة، في كتابها الذي يربو على مائتي صفحةٍ من ذكرياتها، المصير القاسي الذي كانت تواجهه.

لم تكن تلك الأمور سوى بعض القصص من أجواء الحياة الملكية في زنجبار، خلال القرنين الماضيين، ولكنها تعطي لمحة عن العصر، الذي يبدو عند استذكاره ضرباً من الأساطير.

السيدة سالمة (إيميلي ريوتيه) في ما بعد .

الفصل الثامن

أبطال من أسلافنا

لم تكن الشخصيات العظيمة في زمني هي مصدر إلهامي الوحيد فقط، وإنما يضاف إلى ذلك أيضاً الوقائع والإنجازات البطولية لأسلافي. وقد تيسر لي أن أتعلم أشياء عن تاريخي الأسري من جهة الأم، من طريق جدتي عائشة، التي كان زوجها، جدي سليمان بن حمد البوسعيدي، والياً أو حاكماً لمقديشو. وكانت عائلة جدتي عائشة قد واجهت ظروفاً قاسيةً، وكانوا أحياناً في خطرٍ شديدٍ، نظراً للأوضاع السياسية في مقديشو.

في ظل تلك الأوضاع قرر جدي سليمان إرسال عائلته للعيش في زنجبار المستقرة نسبياً. وكان يخطط للعودة للعيش في زنجبار، ولكن ذلك لم يتحقق للأسف. فحين قام الإيطاليون باحتلال مقديشو لم يسمحوا لجدي بالمغادرة، نظراً لأن إلمامه بالشؤون المحلية، ومهاراته السياسية والدبلوماسية العالية في التعامل مع الناس والأوضاع معاً، كانت مهمة جداً بالنسبة لهم، لذلك فقد أجبر على مساعدة الحاكم الإيطالي(*).

(*) ورد ذلك في كتاب كاسانيلي، لي، "النزاع على الأرض في شمال الصومال – ما وراء الحرب" ويستفيو برس، بولدر، كولورادو، 1996م.

وقد تولى جدي لأمي، السيد سليمان بن حمد الذي استقر في مقديشو بعد خروجه من لامو، منصب الوالي، بمسؤولياته الجسيمة في كل من مركا وبنادير وبراوا. وتصف جدتي زوجها الراحل بأنه رجل قوي وشديد للغاية ويشتهر بمهاراته الاستثنائية. وقد كان يتعين على جدي، كوالٍ يعيش في فترة خطرة بسبب الحروب المتتالية بين القبائل، أن يواجه تحديات بالغة التعقيد. وقد خاطر السيد سليمان بحياته في كل يوم، حيث كان يسافر في أرجاء البلاد، لقمع المتمردين وحفظ الاستقرار.

وينحدر السيد سليمان من أصولٍ كريمةٍ من العمانيين المقيمين في شرق أفريقيا. وكما هو معلوم، فإن جدي الأكبر لأمي السيد عبدالله بن جاد بن خلف بن سعيد بن مبارك البوسعيدي قد هاجر من عمان إلى زنجبار عام 1764م، بناء على أمر الإمام أحمد بن سعيد بن محمد بن خلف بن سعيد المبارك. وقد كان في ذلك الوقت قتال ضروس يدور بين القبائل، وبالتالي فقد جاء تعيين السيد عبدالله حاكماً عاماً لشرق أفريقيا لإخماد تلك الصدامات الطاحنة.

لقد كان الأمر مثيراً بالنسبة لي، كشاب لديه شغف كبيرٌ بالتاريخ، أن أكتشف أن جدي الأول لأبي، السيد أحمد بن حمد البوسعيدي، قد قاد حملة عسكرية عام 1824م، ضد الجنرال حامد بن محمد المزروعي، حاكم جزيرة باتي، أحد الأعداء القدامى للحكم البوسعيدي. فقد أرسل السيد سعيد الكبير جيشاً من أربعة آلاف رجل، و30 سفينة حربية إلى باتي، وهي جزيرة كينية تقع على الساحل الكيني، بالقرب من لامو. وقد أسفرت هذه الحرب العنيفة عن استسلام الحاكم، إلا أنه هرب لاحقاً بمهارة إلى ممباسا، حيث علم أنه سيحظى بالدعم.

حين دخل جدي وجنوده إلى جزيرة باتي استقبلهم الأهالي بالترحاب. وبعـد ذلك اتجه جدي ورجاله إلى بيمبا للإطاحة بحاكمها الشيخ سليمان بن علي بن عثمان المزروعي، أحد أبناء القبيلة التي حكمت بعض المناطق في شرق أفريقيا، وكينيا على وجه التحديد، من القرن الثامن عشر إلى القرن

العشرين، وعارضوا حكام البوسعيد في زنجبار بضراوة. والمزاريع هم قبيلة من أصولٍ عمانيةٍ كانت قد وصلت إلى شرق أفريقيا قبل البوسعيد.

لقد انتصر السيد حمد بن أحمد ورجاله في معركة بيمبا، مطالبين بتسليم الجزيرة باسم السيد سعيد بن سلطان. كما تم، تحت قيادة جدي، إخضاع سييو وممباسا. وتعد كل هذه الانتصارات التي تحققت تحت قيادة رجل واحد أعمالاً بطولية إلى قدر كبير.

لدى عائلة والدي تاريخ طويل في زنجبار. وحين قدم جدي، السيد حمد، إلى زنجبار في أواخر القرن التاسع عشر، إنما كان يقتفي آثار أبيه، إذ إن جدي لأبي، السيد حمد بن أحمد البوسعيدي، كان قد غادر إلى شرق أفريقيا في مطالع القرن التاسع عشر، خلال حكم السلطان الشهير سعيد بن سلطان. وقد كان السيد حمد بن أحمد رجلاً شجاعاً وعسكريًّا بارعاً، حيث تم تعيينه من السيد سعيد قائداً عاماً لقوات السلطان المسلحة بأكملها. ومن الانتصارات العسكرية الكبيرة لجدي كان نجاحه في بندر عباس بإيران، حيث قاد قوات السلطان في مواجهة ثوار بندر عباس. وعلى إثر انتصاره في هذه المعركة نال لقب "السمار".

لقد كان السيد سعيد مسروراً جداً بالجهود الجبارة التي كان يبذلها جدي الأكبر، وقد علق قائلاً: "لقد سمَّرتَهم بحق"، فكانت لقباً رافقه إلى الأبد. ومع مرور الوقت أصبح السيد حمد بن أحمد معروفاً بسيفه، حيث قاتل البرتغاليين وجابه الأسر العمانية المناوئة. وكما قاتل المزاريع، فقد قاد المعارك ضد النباهنة الذين كانوا يعارضون حكم السيد سعيد.

وما زال العرب المقيمون في زنجبار، والساحل الكيني، وخصوصاً جزيرة لامو، يتذكرون اسم "السمار" كجزءٍ من تاريخهم. وقد سمعت بأن هناك قصائد باللغة السواحيلية تمتدح جدي الأكبر "السمار" لأدواره البطولية. وكم أتمنى أن أحصل على بعض تلك القصائد.

بعض الشخصيات على متن سفينة حربية بريطانية في زنجبار
الصف الأمامي، في اليمين إلى اليسار : الأول : سيف بن ماجد المعمري،
الثاني : السيد سيف بن حمد البوسعيدي، الثالث : السيد حماد بن أحمد البوسيعدي،
الخامس : السلطان

بعض الأعيان على متن فرقاطة بريطانية

الصف الأمامي – من اليسار لليمين : الثاني : الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي، الثالث : السيد حمد بن أحمد البوسيعدي، الرابع : السيد سالم بن كندة البوسعيدي، الخامس : المقيم البريطاني، السير ألفريد كلود هوليس، السابع : سمو السلطان

وقد كانت شقيقتي السيدة نونو ترغـــب دائماً في زيـارة قبر جدها الشهير السيـد حمد بن أحمد "السمار" البوسعيدي. وقد تحققت أمنياتها أخيراً عام 1959م، حينما قرر السلطان خليفة إدخال السرور إلى قلب زوجته، من خلال تنظيم زيارة لها إلى لامو. وقد شعرت شقيقتي بسعادة غامرة تجاه الزيارة المرتقبة، حيث سيكون هناك الكثير من النشاط الاجتماعي. وبما أن السيدة نونو كانت تود أن تكون سخيةً مع الشعب في لامـــو، فقـــد حرصـت على حمل أكبر مقدارٍ من الأغذية المجففة للرحلة. وقد تم تحديد موعد المغادرة نهاية شهر نوفمبر 1959م، حيث تولت السيدة نونو كافة ترتيبات التنظيم، بما في ذلك دعوة الشخصيات الكبيرة التي ستكون ضمن الحاشية المرافقة للزوجين الملكيين، على متن سفينة الحكومة الزنجبارية "السيد خليفة".

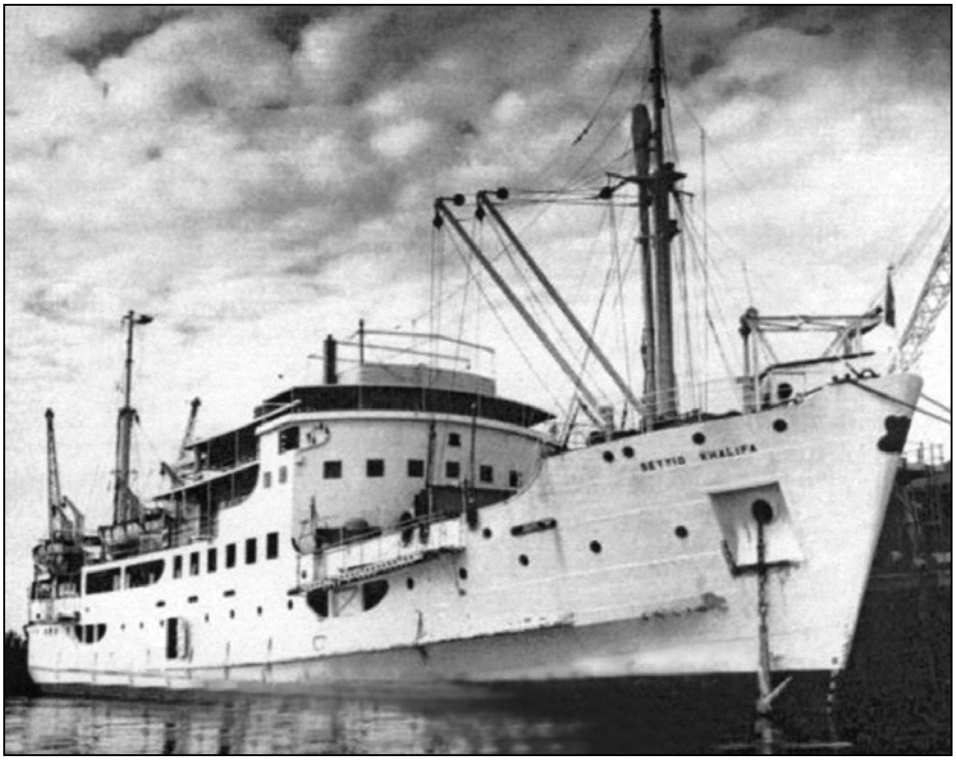

اليخت السلطاني "السيد خليفة"

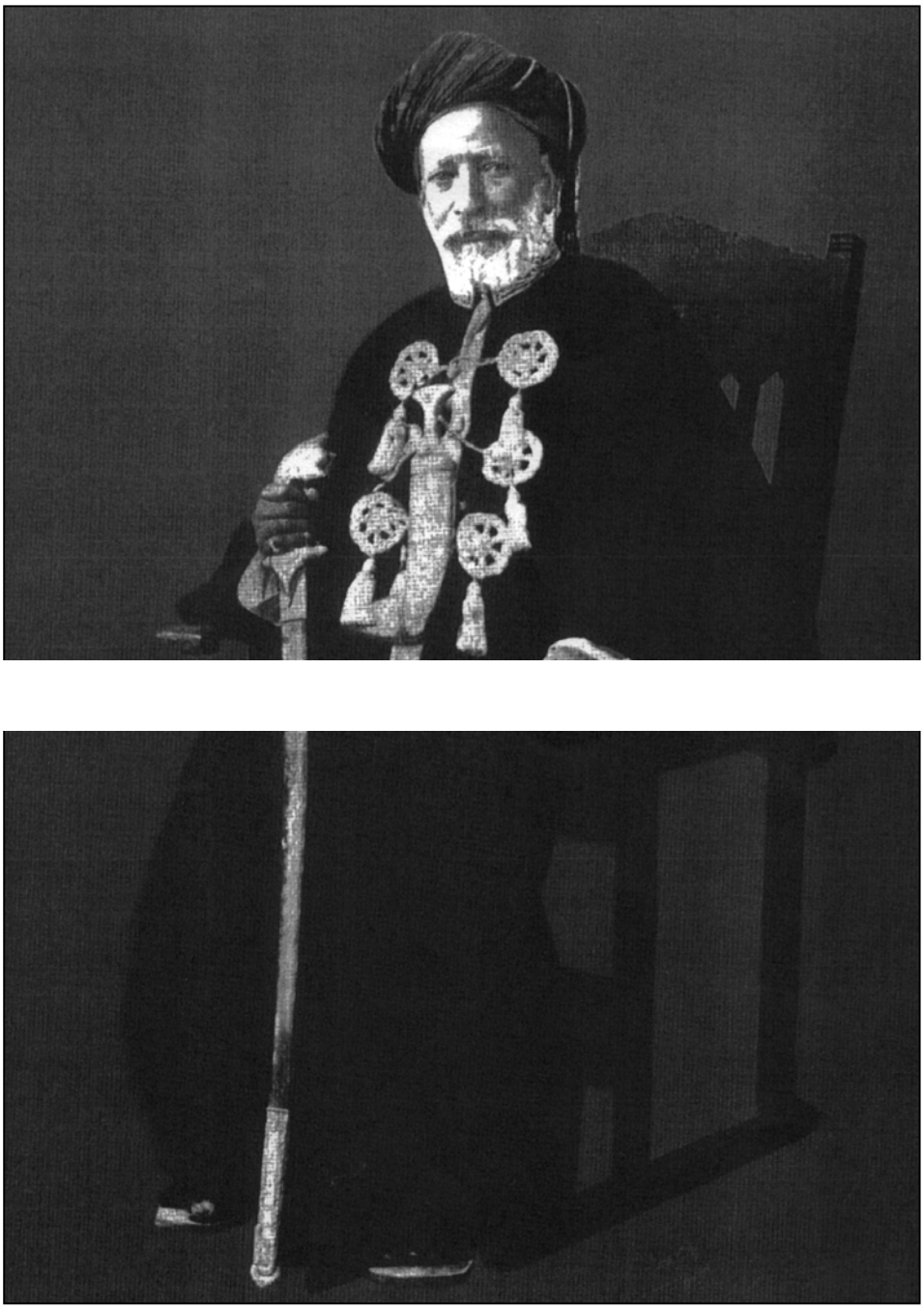

جدي الأكبر لأمي، السيد سليمان بن علي البوسعيدي، والي مقديشو،
وقد تم تعيينه من سلطان زنجبار (1880م)

الشيخ سعيد بن عبدالله الخروصي، والي العاصمة زنجبار (1929م)

لقد تجمع حشد كبير من الناس لدى مكان وصول الموكب الملكي. ونظراً لعدم وجود ميناء مناسب أو أية وسيلة لرسو السفن، وبما أن سمو السيد خليفة كان قد تقدم به السن قليلاً حينها، فقد قرر البقاء على ظهر السفينة. وبالتالي فقد ذهب والي لامو والسيد صالح بن خالد البوسعيدي لاستقبال الزوجين الملكيين على ظهر السفينة. وفور انتهاء المراسم نزلت السيدة نونو من السفينة بمعية مرافقيها. وقد بذل الوالي جهوداً طيبة في تسهيل الوصول إلى القبر.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن السيد خليفة، هو ثاني سلطان لزنجبار يقوم بزيارةٍ إلى جزيرة لامو. أما الأول فقد كان السيد حمود بن محمد بن سعيد بن سلطان. وقد كانت زيارة السيد حمود رسمية، أما زيارة السيد خليفة لم تكن كذلك. وأعتقد أن شعب جزيرة لامو لم يكن يتوقع زيارة سلطان من زنجبار، نظراً لبعض التطورات السياسية المناوئة، التي نشأت خلال عقود منذ مجيء السيد حمود للجزيرة. لقد شعروا بغبطة فائقة، وبذلوا كل ما في وسعهم لمساعدة شقيقتي في البحث عن قبر "السمار".

وقد تم إيصال سموها بواسطة قاربٍ صغيرٍ إلى سييو الواقعة على شاطئ كينيا المجاور، حيث دفن جدي الأكبر. ولم يكن هناك أية طرقٍ تذكر، كما أنه لم يكن هناك مركبات للسير على الطرق الوعرة، لذلك فقد تطلب الأمر إزالة مساحاتٍ نباتيةٍ كثيفة لتسوية الطريق لسموها، كي تصل إلى القبر، حيث كانت تعتزم وضع حجر رخامي. وقد كان القبر في الموقع نفسه الذي ضرب فيه جدنا "السمار" ومات ميتة شريفة.

وحين وصلت السيدة نونو إلى موضع القبر المصان بعناية، تلت في خشوعٍ مهيبٍ بعض الآيات من القرآن الكريم، أنهتها بتلاوة الفاتحة وبعض الأدعية. وبعد ذلك قام أحد العمال بنصب الشاهد الرخامي الذي أمرت بوضعه، وقد نقش عليه جانبٌ من سيرة جدنا الأكبر السيد حمد بن أحمد البوسعيدي، مبيناً السبب النبيل لدفنه في هذا المكان المتواضع.

السيدة نونو مع مساعداتها من النساء الزنجباريات.

كان السلطان وشقيقتي يعتزمان الترفيه عن مضيفيهم من لامو على ظهر السفينة. وحينما وصل الضيوف تفاجأ سموهما بأن العديد من النساء من لامو كن يرتدين ملابس تراثيةً خاصةً بالمناسبات، تعود إلى ثلاث أو أربعمائة عام. وذلك يرجع إلى أن الزيارة تحمل بالنسبة لشعب لامو دلالات تاريخية، فقرروا

الاحتفاء بها من خلال ارتداء أفخر أزيائهم. لقد كن يبدين رائعاتٍ ومهيباتٍ في أثوابهن البديعة، المصنوعة يدوياً. وقد كان هذا الأمر مثيراً للاستغراب بالنسبة للزوجين الملكيين، إذ كيف تمكنت النسوة في لامو من المحافظة على الأزياء التقليدية لبلدهن، رغم قلة الموارد لديهن.

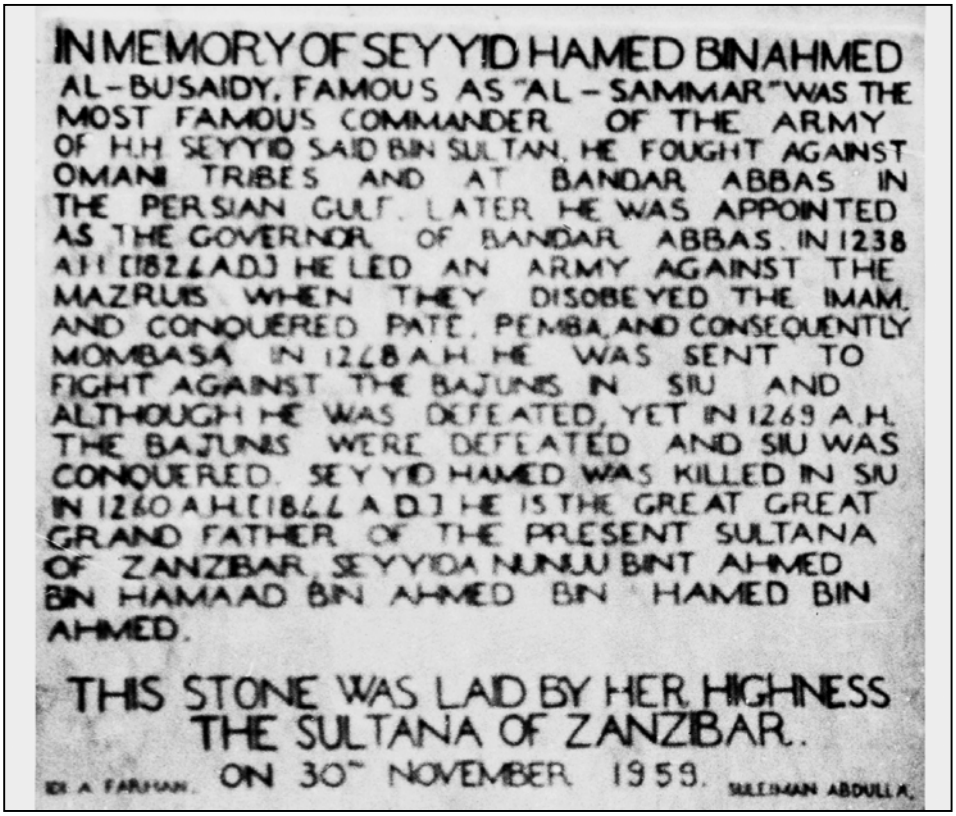

صورة للنصب التذكاري الرخامي للسيد حمد بن أحمد البوسعيدي

لقد أثارت رؤية الزوجين الملكيين مشاعر الشعب في لامو. ولا بد أنها ذكرتهم بزيارة السلطان حمود إلى لامو، وأعادت إلى الأذهان روعة الاحتفال الكبير وبهجته. لقد كانت زيارة السيد حمود يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، وجاءت هذه الزيارة الملكية فرصةً سانحةً لإحياء تلك المناسبة الأسطورية.

وحين غادر اليخت السلطاني "السيد خليفة" جزيرة لامو، تجمع المئات من الناس لتوديع سلطانهم وزوجته.

إنني ما زلت مبهوراً بالقصة الرائعة التي تجسد القوة البدنية والحضور الذهني لجدي الأكبر لأبي. فقد حدث مرةً، حينما كان في حملة، متوغلاً في الغابات الأفريقية، أن استلقى للراحة بالقرب من قدرٍ نحاسيٍّ ضخمٍ في المخيم، فهاجمه أسد ضارٍ. وفي ردة فعلٍ خاطفةٍ، أخذ السيد حمد بالقدر وهشم به جمجمة الأسد.

ليس لدي الكثير مما أعرفه حول حياة جدي الأكبر حمد، أكثر مما سردته هنا، ولكني أعرف جيداً كيف توفي. لقد مات جدي مقتولاً في الجولة الثانية من القتال عام 1844م، أثناء قتاله ضد الباجونيين. فمن المعلوم أن جدي الأكبر كان ميالاً للخصوصية، وكان يفضل أن ينصب خيمته بمنأى عن خيام رجاله عندما كان يسافر في براري أفريقيا. وفي إحدى الليالي، وبينما كان يمشي وحيداً في الظلام، متجهاً نحو خيمته، باغتته مجموعة من الباجويين الذين خرجوا له من بين الأشجار وداهموه.

وعلى الرغم من تفوقهم العددي، إلا أن السيد حمد، قاوم مهاجميه ببسالةٍ، وأصابهم جميعاً بجروح بليغة، بواسطة خنجره الحاد، قبل أن يسقط ميتاً بجراحه. لقد كان رجلاً عظيماً بحق، وكم أتمنى أن أكون قد رأيته.

إنني حينما أنظر الآن للوراء، أدرك كيف تشكلت طفولتي وشبابي بتأثير الأجواء العائلية والمدرسية، بالإضافة إلى مؤثرٍ آخر، أقل أهميةً، ولكنه قوي، ألا وهو الإرث المشرف الذي تلقيته من الشخصيات المميزة من كلا الجانبين في أسرتي. لذلك لم تكن حياتي عاديةً على الإطلاق.

السيد عبدالله بن خليفة (1960- 1963م)

الفصل التاسع

التدرج في المناصب الحكومية

لقد بدأت حياتي العملية في القطاع الخاص، غير أن الجزء الأكبر منها قضيته في الخدمة الحكومية متنقلاً بين تانجنيقا، وزنجبار، وليبيا، وعمان. وقد وجدت أن متعة العمل في الدول الصغيرة نسبياً كهذه، تكمن في أنه يتيح لي الإسهام بشكلٍ ملموسٍ في التنمية والتطوير على مستوى الدولة بشكلٍ عام. وكان من حسن حظي، أثناء عملي في القطاع الخاص، أنني اكتسبت مهاراتٍ في الإدارة والتنظيم، الأمر الذي مكنني من ممارسة مهام عملي في القطاع الحكومي على نحوٍ فعال.

حين أنهيت دراستي الثانوية، قررت أن أختبر قدراتي في إدارة مزارع عائلتي من أشجار جوز الهند، وكان ذلك يقتضي الإشراف على عملية الحصاد وضمان البيع. وعلى الرغم من أن جدي الراحل لم يحقق نجاحاً كبيراً في عمله بهذه المزارع، إلا أني تمكنت من إحراز النجاح في هذه المهنة، ولكنها لم تملأ وقتي كاملاً، نظرا لطبيعتها الموسمية. وقد شعرت بالتالي بأن الوقت ينسل من بين أصابعي، وأنني ربما كنت أهدر وقتي وطاقاتي، وأنني في حاجة للحصول على وظيفةٍ تمنحني خبراتٍ أوسع، وتتيح لي الفرصة الالتقاء بفئاتٍ مختلفةٍ من البشر، رغم أني كنت على درايةٍ بأن مثل هذه الوظيفة غير متوافرةٍ في زنجبار.

في تلك الفترة كانت هناك أعمالٌ تنمويةٌ ضخمةٌ قائمة في دار السلام،

عاصمة تانجنيقا، وهو الاسم القديم لتنزانيا. وقد أغرى ذلك الكثيرين من الشباب على مغادرة موطنهم زنجبار، بحثاً عن فرصٍ وظيفيةٍ في الخارج، تحقق أحلامهم في مجال العمل. وقد كان الحظ حليفي إذ حصلت على منصب نائب الوالي، أو (نائب الحاكم) في دار السلام، حيث كنت أقدم التقارير إلى السيد حامد بن صالح البوسعيدي، الرجل الذي يتمتع بخبرةٍ فذةٍ، والذي كنت معه على وئامٍ كبير.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وقبل انتقاله إلى الإدارة الحكومية، كان السيد حمد يعمل في قوة "بنادق شرق أفريقيا"، أسوةً بالكثيرين من الشباب. وبعد انتهاء الحرب بفترةٍ قصيرةٍ، تم إرسال السيد حمد وعددٍ من أقرانه الضباط إلى المناطق النائية، وذلك لترسيم الحدود بين كينيا، وتانجنيقا والحبشة. وقد أخبرني بأن هذه المهمة استغرقت ثلاثة أشهرٍ من العمل الشاق والخطر في شق الطرق ببطءٍ عبر الغابة.

في أعقاب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، وأثناء الانتقال الصعب من الحكم الألماني إلى البريطاني، كان السيد حمد يعمل والياً لإحدى مقاطعات تانجنيقا. وقد تبين لي بأنه قد عمل في العديد من الأقاليم قبل تنصيبه والياً على دار السلام، الأمر الذي أكسبه خبراتٍ واسعة، استفدت منها بشكلٍ كبير.

وخلال السنوات الثلاث التي عملت فيها نائباً للوالي، من 1945 إلى 1948م، تعرفت على أشخاصٍ من ثقافاتٍ مختلفة. وكانت الشعوب المستعمرة في تلك الفترة، بعد الحرب العالمية الثانية، قد بدأت تفكر جديًّا في نيل الاستقلال من حكامها الإمبرياليين. وكان البريطانيون قد أعلنوا فعليًّا إنهاء الاستعمار، ومنح المستعمرات البريطانية الأفريقية استقلالها.

وفي ظل هذا الإعلان البراق الذي تُرِك معلقاً في الهواء، بدأ كثير من الدول الأفريقية الاستعداد للاستقلال. كما كثرت الاجتماعات التي

كانت تشهد إطلاق البيانات النارية، من الراديكاليين، الذين سيصبحون ساسةً في ما بعد. لقد قسموا العالم على أساس "يمتلك" و"لا يمتلك"، وكانون يتطلعون إلى المستوى المعيشي الوسط، ووسائل الرفاهية المرغوبة مثل المنازل الأوروبية والمركبات.

ولكن الأمر الذي أثار حفيظة كثير من الشعوب المحتلة وأوقعها في حيرةٍ، أنه حينما جاءوا يطالبون بالاستقلال المـــوعـــود، تـم إبلاغهم بأن الوقت ليس مناسباً بعد، الأمر الذي أجج نوازع الثـــورة، حيث شعر الناس بأنهم قد تعرضوا للخديعة. وقد كانت هناك قناعة عامـــة تنتشر بين الشعوب المستعمرة، أنه على الرغم من الوعود، إلا أن الحكومة البريطانية لن تمنحهم الاستقلال دون قتال.

ويبدو لي أن إعلان منح الحرية للمستعمرات كان سابقاً لأوانه، فقد كان يتوجب على الحكومة البريطانية التأكد من قدرة الشعوب المستعمرة على تولي إدارة حكوماتها بنفسها. إن الوقوع في مثل هذا الخطأ أمر يثير الاستغراب، لكون الحكومة البريطانية هي التي أدخلت التعليم في تلك المستعمرات، وتعلم مستوى النضج المعرفي لدى الشعوب. وبالتالي فقد كان يتعين على بريطانيا التي كانت تمثل القوة الاستعمارية الكبرى في العصر الحديث، أن تعي الأمر بشكلٍ أفضل، وأن يتحمل البريطانيون مؤونة تقييم الأوضاع في المستعمرات الأفريقية، وتحديد جاهزيتها للنهوض والمضي قدماً كأوطان مستقلة.

لقد كانت قناعتي منذ البداية بأنه كان ينبغي على البريطانيين أن يدركوا أنه سيكون من الأجدى تعجيل العملية التعليمية والتدريبية عبر مستعمراتهم الإفريقية قبل أن يتركوها عرضةً للتمزق، حتى يكون الناس الذين يتولون شؤون الحكم أفضل كفاءةً لمباشرة اعتلاء السلطة.

في الوقت ذاته أصبحت المستعمرات عدوانية تطالب بحرية فورية، على الرغم من أن أغلب هذه المستعمرات لم تكن جاهزةً لتسيير شؤون الدولة،

وتولي زمام الحكم بيديها. وقد اتضح ذلك سريعاً، حيث عمت الفوضى في العديد من المستعمرات المحررة حديثاً. ولسوء الحظ فقد عانت الشعوب الأفريقية كثيراً جراء أخطاء قادتهم الذين سعوا لاعتلاء الحكم قبل الأوان.

ومهما يكون من أمرٍ، فإن هذه التحولات أتاحت لي فرصاً سانحة في المجال الوظيفي. ففي عام 1948م، عرض علي منصب مديرٍ محلي في العاصمة، وقد قبلت بالعرض نظير تحقيق بعض الاشتراطات. وفور تحقيق تلك الاشتراطات قررت قبول التحدي الجديد، بحماس شديد، مستشعراً عناية القدر. ولم لا وأنا أعود لاستلام منصبٍ جديدٍ في بلدي، عائداً من تانجنيقا، التي كانت في ذلك الوقت دولةً أخرى، وبالتالي فإن الانتقال إلى الوظيفة الجديدة لم يكن تنقلاً داخلياً، الأمر الذي حتم علي الاستقالة من الوظيفة السابقة.

وفي العام التالي، أي في 1949م، تبسم لي الحظ عندما تزوجت من سميرة بنت سالم المعمري. وقد ولدت ابنتنا الكبرى، ريان، في مستشفى زنجبار للولادة، بتاريخ 5 إبريل 1950م، وحظيت زوجتي بعنايةٍ فائقةٍ في المستشفى، حيث كانت خالتها تعمل قابلةً ذات خبرةٍ واسعةٍ، وأختها مشرفة. لقد كانـــت ريان مولودةً جميلةً وتتمتع بصحةٍ جيدةٍ، وكان كلانا سعيداً بمجيئها. وبعد ثلاث سنواتٍ من ذلك ولدت ابنتنا الثانية راوية، بتاريخ 24 يونيو 1953م. وكانـــت كلٌّ من ريـــان وراويـة فتاتين ذكيتين. أما ابننا أحمد، الذي طال انتظاره، فقد ولد بتاريخ 23 ديسمبر 1957م، وكان هذا الحدث مبعث سرورٍ كبيرٍ بالنسبة لنا.

الأطفال الثلاثة جميعهم التحقوا بمدرسة سنت جوزيف، وهي مدرسةٌ خاصةٌ جيدةٌ في ستون تاون، تقدم التعليم باللغة الإنجليزية، الأمر الذي جعل البعض يسألنا لماذا نبعث أبناءنا إلى مدرسة سنت جوزيف بدلاً من إرسالهم إلى مدرسةٍ حكوميةٍ، بما أن سميرة كانت تعمل معلمةً في مدرسة حكوميةٍ ثانويةٍ؟ وقد كانت الإجابة بأن وسيلة التعليم في المدارس الحكومية هي اللغة

السواحيلية، بينما كنا نحتاج تعليم أبنائنا باللغة الإنجليزية، إذ إننا كنا نخطط، حتى قبل ولادتهم، لإرسالهم للدراسة في الخارج، لاستكمال دراساتهم العليا. وكان يشترط على الراغبين في الالتحاق بالمدارس الخارجية المميزة التي كانت في أذهاننا، أن يكونوا ماهرين في اللغة الانجليزية.

لقد كنت مشغولاً بعملي للغاية، حيث كنت أواجه العديد من التحديات. وقد كان قلقي ينصب تحديداً على مصير المساعي التي كنت أبذلها لتغيير السياسة الزراعية لزنجبار ما قبل الحرب، والتي كنت متيقناً بأنها ستكون ضارةً باقتصاد الجزيرة. ففي أثناء الحرب العالمية الثانية كانت هناك حملةٌ لجعل الجزيرة تتمتع بالاكتفاء الذاتي غذائياً، إذ إن العدد المتناقص من السفن التجارية لم يكن بمقدوره أن يوفر كل ما كنا نحتاجه في ذلك الوقت. وقد كان المزارعون يتلقون الحوافز المشجعة من الحكومة لغرس المحاصيل، بغية تحقيق الاكتفاء الذاتي. وكان يتوجب علي السير مشياً على القدمين لمسافاتٍ طويلةٍ عبر الأدغال للتأكد من العناية بهذه المحاصيل. كما كنت أقطع المسافات بسيارتي من طراز فورد، وغالباً ما كنت أتوقف لتفحص الحقول أثناء التفتيش على المحاصيل، حيث كان يتوجب علي تقديم تقريرٍ مفصل للحكومة شهرياً، حول النتائج.

ولا بد من الاعتراف بأنني غضبت كثيراً، حينما أبلغنا المقيم البريطاني بأن الحكومة الزنجبارية سوف تبدأ بعد الحرب باستيراد المنتجات الزراعية من الخارج، على الرغم من أن الأسواق الزنجبارية مليئةٌ بالمنتجات المحلية. ومن الواضح أن البريطانيين كان لديهم انحيازٌ لشركة الهند الشرقية، التي كانت تمتلك السفن التي كانت تنقل المواد الموردة إلى زنجبار. أما انحيازي أنا فقد كان للمزارعين وباعة التجزئة الزنجباريين، الذين لا يستطيعون منافسة أسعار السلع المستوردة. وهكذا فقدت زنجبار القدرة على توفير غذائها بنفسها. لقد كان الأمر جد مخزٍ، ولم أتردد في إبلاغ كبار المسؤولين البريطانيين بأن سياستهم كانت مضرةً بمصالح زنجبار.

كان لدى الحكام الإداريين مسؤولياتٌ متعددةٌ، ومن المهام التي كانت أكثر متعةً حماية بقايا قصر المرهوبي والحفاظ عليه، وهو القصر الذي بناه السيد برغش لحريمه في ثمانينيات القرن التاسع عشر، والذي احترق عرضيًّا عن بكرة أبيه عام 1899م. لقد كان قصر المرهوبي يمثل أهميةً خاصةً بسبب أفلاجه المائية، وهو نظام ري بديع يعتمد على الجاذبية الأرضية، تم استجلاب تصميمه الأصلي من عمان. وتنبع مياهه من عيون في بربولبو، حيث يتم دفعها بواسطة الجاذبية الأرضية عبر قنوات مائية تحت الأرض، صممت لتظهر على السطح لدى قصر المرهوبي، حيث تلبي كل حاجات سكان القصر. وتتفرع من فلج المرهوبي ينابيع مائيةٌ تتدفق بغزارةٍ عبر قنواتٍ تم شقها فوق سطح الأرض لتجري منسابةً بين حدائق القصر.

في إحدى المراحل التي سبقت اعتلاءه العرش، كان السيد برغش منفياً في الهند، حيث نشأ محباً لثمار المانجو اللذيذة، التي كانت تنمو بشكلٍ جيدٍ في المزارع الخصبة لتلك الأرض. وحينما عاد إلى زنجبار لتولي زمام الحكم جلب معه صناديق مليئةً بثمار المانجو من نوع الفونسو الذهبية. وقد أرسل السلطان برغش لاحقاً سفينةً إلى الهند لجمع بذور المانجو ومقدارٍ من التربة الهندية الخصبة لغرسها فيها، وبالتالي برزت أهمية نظام الري بواسطة الأفلاج في قصره الجديد. وهكذا ازدهرت زراعة المانجو من البذور الهندية في زنجبار.

في عام 1949م تقدمت بطلبٍ إلى وزارة التعليم بزنجبار للحصول على بعثةٍ دراسيةٍ، مدفوعاً بطموحي الشديد لتطوير قدراتي للعمل في القطاع الحكومي، حتى يتسنى لي تطوير معارفي في مجال الإدارة العامة. كما شاركني الطلب صديقي هلال بن محمد البرواني. ولم يسبق لوزارة التعليم منح بعثاتٍ دراسيةٍ لإدارة الإقليم، إلا أنه بعد ترددٍّ طويلٍ تمت الموافقة على الطلبين. وهكذا كسرنا القاعدة كأول موظفين حكوميين من إدارة الإقليم يتم منحهما بعثةً دراسيةً إلى المملكة المتحدة.